الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أحمد بن يحي الونشريسي

تيسمسيلت

معهد الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

الموسومة بـ:

منحى الاعتزال في أدب الجاحظ

ـ البيان والتبيين ـ نموذجا

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:

- غالب حورية
- عبيد إيمان

إشراف الدكتور:

. خالد بلمصابيح

لجنة المناقشة

د.طعام شامخة..... رئيسا

د. بلخياطي الحاج لونيس.....مناقشا

د.بلمصابيح خالد.....مشرفا

السنة الجامعية: 1442/1441 هـ- 2021/2020

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أول من يشكر ويحمد آناء الليل وأطراف النهار هو العلي القهار الأول و الآخر والظاهر و الباطن الذي أغرقنا بنعمه التي لا تحصو أغدق علينا برزقه الذي لا يفنى وأنار دروبنا فله جزيل الحمد والثناء العظيم. هو الذي أنعم علينا اذ أرسل فينا عبده ورسوله محمد بن عبد الله عليه أزكى الصلوات وأطهر التسليم أرسله بقرآنه المبين فعلمنا ما لم تكن نعلم وحثنا على طلب العلم أينما وجد

لله الحمد كله والشكر كله أن وفقنا وألهمنا الصبر على المشاق التي واجهتنا لإنجاز هذا العمل المتواضع

والشكر موصول الى كل معلم أفادنا بعلمه من أولى المراحل الدراسية حتى هذه اللحظة

كما نرفع كلمة شكر الى الأستاذ المشرف بلمصابيح خالد الذي ساعدنا على انجاز بحثنا

كما نشكر كل من مد لنا يد العون من قريب أو بعيد ونشكر كل أساتذة وعمال قسم اللغة العربية و آدابها خاصة و أساتذة جامعة تيسمسيلت عامة

وفي الأخير لا يسعنا الا أن ندعو الله عز وجل أن يرزقنا السداد والرشاد والعفاف والغنى

وأن يجعلنا هداة مهتدين

إهداء

إلى من نذرت عمرها في أداء رسالة صنعتها من أوراق الصبر وطرزتها في ظلام الدهر أمي الغالية أمد الله في عمرها بالصالحات

إلى من حصد الأشواك ليمهد لي طريق العلم والمعرفة إلى القلب الكبير أخص هذا الإهداء والدي أطال الله بقائه

إلى أخي وأبي الثاني سندي وعوني بعد الله ,عبد القادر

إلى من حبهم يجري في عروقي و يلهج بذكراهم فؤادي إلى منهم عروتي وسندي إليكم اخوتي ’صالح ’يوسف

إلى من أشتاق إلى رؤيته ,إلى أخي الراحل أحمد سلاما على روحك الطاهرة*رحمك الله

إلى من سرنا سويا ونحن نشق الطريق معا إلى النجاح إلى رفيقة دربي ايمان

إلى صديقاتي: زهية ,نادية ,فاطمة ,سارة ,خيرة, سمرة ,حليمة, فتيحة,. غنية, إلهام

إلى كل من نستهم مذكرتي ولم تنسهم ذاكرتي

حورية

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى بسمة الحياة وسر الوجود إلى التي بين يديها كبرت وفي دفء قلبها احتميت ومن عطاءها ارتويت التي غمرتني بحنانها وعطفها أمي الغالية أطال الله في عمرها

إلى من لست أنساهم وفي القلب ذكراهم وأتمنى في الجنة لقياهم "جدي" و"جدتي رحمهماالله"

إلك لمن تربطني بهم المشاعر فيحن قلبي عند لقائهم أخوالي وخالاتي وكل عائلة " قربي"

إلى رفيقة دربي وتوأم روحي ومن تقاسمت معها أعباء حمل هذه المذكرة أختي وصديقتي "غالب حورية"

إلى من ينفتح صدري بذكره وبوجوده تكتمل سعادتي و من أعطاني حنانه "طارق"

إلى الأخوات اللواتي لم تلدهم أمي وأصبحن شقيقاتي: فاطمة, نادية, خيرة, سمرة, فتيحة, حليمة, غنية, إلهام, مليكة, زهية.

إلى كل من سقط سهوا من قلبي إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

إيمان

مقدمة

مقدمــة:

الحمد لله الذي له الحمد كله والصلاة والسلام على سيد الخلق وصحبه أجمعين.

إن البحث في التراث العربي الإسلامي ليس بالأمر الهين خاصة إذا كان مع علم بارز كالجاحظ الذي ذاع صيته عبر الأزمان والأجيال نظرا للمكانة التي حفل بها وهذا راجع للقدرة العقلية التي مكنته من إنتاج هذا الكم الهائل من المؤلفات في مختلف الميادين والموضوعات مما جعلته محط أنظار الكثير من الباحثين والدارسين.

ومن بين المذاهب التي اهتم بها الجاحظ وتميز بها الفكر الاعتزالي وما أطلق عليه بالاعتزالية الجاحضية لارتباطها الوثيق بالجاحظ والتي لفتت انتباهي من خلال كتابه البيان والتبيين فوجدنا فيه ما يدعو إلى البحث والتنقيب فبدت لنا هذه المسألة في غاية الأهمية.

لقد حاولنا في مرات عديدة البحث عن تجليات الفكر الاعتزالي في أدب الجاحظ من خلال البيان والتبيين وقد ارتأينا في بحثنا هذا إزالة الغموض عن فرقة المعتزلة من أفكار ومبادئ ثم كان لابد من مسح الغبار عن بعض تراث أبي عثمان بن عمرو هذا العالم صاحب المكانة المرموقة التي رفع نفسه اليها بقدرته العقلية التي مكنته من إنتاج كم هائل من المؤلفات المختلفة في شتى المواضيع.

إن الحديث عن التراث العربي الإسلامي وعن مكانته في ظل المعطيات المعاصرة أصبح أمرا ضروريا من أجل اكتشاف ما احتواه هذا التراث من نبوغ معرفي وفكري متميزين وبالتالي إعادة صياغته صياغة تليق بمقامه.

لقد قامت دراستنا هذه من أجل الكشف عن أثر الاعتزال في فكر الجاحظ من خلال كتابه البيان والتبيين فرأينا أنه لابد من بحث عربي معاصر يستحلي مكامن التراث العربي واستثمار قدراته العلمية في فكر عربي حداثي أصيل.

لقد حاولنا الاعتماد على كتاب رأينا أنه يزخر بنصوص تحمل في طياتها بعض التلميح إلى تفكير الجاحظ في الاعتزال، إنه "البيان والتبيين" وهو كتاب مطبوع في أربعة أجزاء حققه وشرحه شيخ المحققين عبد السلام محمد هارون برعاية دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

وهناك كتب تراثية ودراسات أخرى حديثة اعتمدناها في هذا البحث نذكر منها:

- الجاحظ، الحيوان، تح، عبد السلام محمد هارون
- النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية لمحمد الصغير بناني
- الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد
- طـه الحاجري الجاحظ حياته وآثاره

وغيرها من المراجع والمذكرات...

إن اختيارنا للجاحظ ومتابعه البيان والتبيين لم يكن اختيارا عفويا بل عن وعي وقصد وذلك للأسباب التالية:

أولا: القيمة العلمية والأدبية التي يحملها البيان والتبيين التي تستحق الدراسة فالمتصفح لها يجد مادة علمية جديرة بالدراسة.

ثانيا: الاستفادة من معرفة مذهب المعتزلة كفرقة وسبب ظهورها وأسسها وذلك رغبة منا بالإحاطة بكل جوانب هاته الفرقة. وكذلك عطاء الجاحظ العلمي المتميز.

ثالثا: الطاقة المتجددة في كتابات الجاحظ إنها معين لا يكاد ينضب من الطاقة والحيوية.

أما الحديث عن الصعاب والعقبات التي واجهتنا أثناء هذا البحث فهي كثيرة كما أنه لا يخفى على كل باحث أنه لكل بحث جاد مثل هذه الصعاب والعقبات فالباحث لا يحس بلذة البحث إذا لم تواجهه مثل هذه العقبات مثل قلة المراجع وندرتها بعض الأحيان , عملية القراءة التي تعتبر عملا مضنيا وهنا لا أتحدث عن القراءة العادية بل القراءة المتقصية والتي يهدف من ورائها الباحث الوصول إلى شيء ما فهناك نصوص يكتنفها بعض الغموض تدفع الباحث لإعمال فكره أكثر فأكثر.

لقد اعتمدنا في ذلك على منهجين رأينا أنهما من أهم المناهج لمثل هذه الدراسات: الأول وصفي تحليلي والثاني تاريخي.

فالمنهج الوصفي هو أكثر المناهج الحديثة أهمية في الدراسة بعد أن أزاح المنهج التاريخي القديم الذي استقطب اهتمام الباحثين ردحا من الزمن.

أما وصفه بالتحليل فذلك يعني أنه منهج بحث يقوم على عزل أجزاء الظاهرة بعضها عن بعض عزلا عقليا أو هو وسيلة من أجل إثبات قضية عقلية معينة عن طريق تأليف سلسلة من القضايا أولها القضية المراد إثباتها وأثر القضية المعلومة.

أما المنهج التاريخي حتى يضيف الدراسة مزيدا من الدقة والملاحظة ولذلك يحتاج الباحث إلى رصد الأحداث مرفقة بالتواريخ لإثبات صحة معلوماته . فالجاحظ له تصور لبعض المفاهيم حاولنا تأريخها زمنيا

.وعليه قد جاء عنوان بحثنا على النحو الآتي:

منحى الاعتزال في أدب الجاحظ "البيان والتبيين" نموذجا

وقد تضمن البحث مدخلا وفصلين وخاتمة وهي كالتالي:

المدخـــل: حول الجاحظ

حاولنا من خلاله أن نعطي لمحة عامة حول الجاحظ كم حلال مولده وحياته وثقافته ومذهبه الاعتزالي وما ترك من آثارا وكذلك أضفنا مفهوم كل من البيان والتبيين كل على حدى.

بداية مع الفصل الأول وتمت عنونته بـ:

الفصل الأول كان عنوانه: المعتزلة الأفكار والتطور.

وقد حاولنا من خلاله التوصل إلى مفهوم الاعتزال ومبادئه والأسس الفكرية للمعتزلة وكذلك تطور المعتزلة على مر مختلف الثقافات في ذلك العصر. وذلك من خلال المباحث التالية:

1) المعتزلة المفهوم والنشأة.

2) مبادئ الاعتزال والأسس الفكرية للمعتزلة.

3) مسألة النظم عند المعتزلة وتطور الاعتزال في ظل المعتقدات الأجنبية.

أما الفصل الثاني فجاء على النحو التالي:

الفصل الثاني كان عنوانه: الاعتزال في أدب الجاحظ من خلال البيان والتبيين

حاولنا من خلاله الكشف عن كيفية تأثر الاعتزال في تأليف الجاحظ للبيان والتبيين وكذلك تجليات الاعتزال في كتابة مواضيعه وجاءت خلال مباحث كالآتي:

1) أثر الاعتزال في تأليف البيان والتبيين.

2) تجليات الاعتزال في موضوعات البيان والتبيين.

وختمنا بحثنا بخاتمة كحوصلة للبحث احتوت على أهم النتائج الموصل إليها.

وفي الأخير وفي ختام هذا البحث لا يفوتنا أن نتقدم بالشكر الجزيل لأستاذنا الفاضل خالد بلمصابيح الذي كان طيلة فترة البحث السند والعون فقام بتوجيهنا وترشيد خطانا كما لم يبخل علينا في تقويم مسار البحث. ولا ننسى كل أساتذة اللغة والأدب العربي تيسمسيلت خاصة الذين أخذنا عنهم العلم وتواضع الأخلاق, وكما نشكر كل من قدم لنا يد العون والمساعدة من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث.

مدخل:

حول الجاحظ

الجـاحــظ : حياته ـ ثقافته ـ آثاره

1 ـ حــياتــه:

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني باللواء الليثي ، الشهير بالجاحظ .معلم الحضارة والفكر في العصر العباسي، أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي اختلف في أصله هل هو عربي بالنسب أو بالولاء؟ ويرجح معظم المؤرخين والدارسين أن الجاحظ ليس من أصل عربي وإنما نسب إلى بني كنانة وفي رسالة الجاحظ التي اشتهرت عنه حيث مدح فيها نفسه حين قال:" أنا رجل من بني كنانة ، وللخلافة قرابة ,ولي فيها شفاعة، وهم بعد جنس وعصبة[1] "

ولد أبو عثمان بالبصرة حيث اختلفت آراء المؤرخين بصدد تاريخ ولادته ووفاته إلا أنهم اتفقوا على أنه ولد حوالي (776م_160هـ) وتوفي سنة (869م_255هـ) حيث ذكر الدكتور طه الحاجري في كتابه حين قال: " نستطيع أن نطمئن إلى أن مولد الجاحظ كان في القرن الثاني[2] "

لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، عرف عنه خفة الروح وميله إلى الهزل والفكاهة

كانت ولادته في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ,عاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في أوجها

قضى معظم حياته بالبصرة نشأ فيها مكافحا للفقر لكن لم تثن حالة الفقر هاته على عزمه عن طلب العلم فكان دائم التردد على الكتاب كثير المجالسة بالعلماء، خالط الشعراء والأدباء ونادم الملوك والوزراء وغيرهم

---

[1] جميل جبر, الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد, دار صادر, د.ط, بيروت. لبنان, ص7

[2] طهالحاجري, الجاحظ حياته وآثاره, دار المعارف, ط2, مصر, 1969, ص89

ـ ثـقــافــته:[1]

كان الجاحظ منذ صغره ميالا إلى القراءة والمطالعة وظل هذا الميل ملازما له طيلة عمره ويشاع أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر فقد عاش في عصر كان آنذاك مهد العلم ومنتدى الأدب فكان دائم التردد على الكتاب يقرأ الكتب ويدرسها في مجالس العلماء وحلقاتهم في مسجد البصرة و ما جوارها، كان كثير الترحال لطلب العلم والمعرفة تكونت لديه ثقافة متنوعة مكنته ليخوض ميدان التأليف في العلوم والمعارف المختلفة .

وجد في الوسط البصري بيئة علمية غنية بالعلماء والمجالس العلمية والنوادي الأدبية ,اتصل بنخبة من علماء عصره أخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأخذ النحو عن الأخفش.

للجاحظ ثقافة موسوعية تكاد تشمل معارف عصره في اللغة والأدب والدين والفلسفة .

الجاحــظ والمعــتزلة:

يعتبر الجاحظ أحد المنتمين إلى الفكر الاعتزالي بكل ما يعنيه هذا الفكر من اعتماد على النظر العقلي والتجريد الأصولي وهو ما يجعل من فكره اللغوي مكتسبا لبعد وثوقي.

كما ذكرنا وأنه تعلم وتواصل مع أساتذة ومعلمين وأخذ منهم ولكن الأستاذ الذي كان له الأثر الكبير في تكوين شخصية الجاحظ العلمية هو النظام أخذ عنه الإعتزال وعلم الكلام وخطى خطاه في الميل إلى الفلسفة واتبع منهجه القائم على الشك والتجربة .ومع ذلك فقد كان للجاحظ

[1] ينظر, شارل بيلا, الجاحظفيالبصرةوبغدادوسامراء, ترابراهيمالكيلاني, ديوانالمطبوعاتالجامعية, ط1, الجزائر,1985 ,ص17

[2] عبدالمنعمخفاجي, أبوعثمانالجاحظ, دارالكتابالبناني, بيروت, لبنان, ص51

تفكيره المستقل فخالف النظام في بعض المسائل الكلامية ورد عليه في بعضها الآخر بل خالف المعتزلة كلهم في بعض دقائق علم الكلام وانفرد بها وتبعه بعض من تلامذته فكونوا مدرسة اعتزالية تسمى الجاحظية[1] .

ويتجلى فكر المعتزلة في فكر الجاحظ في المنحى الكلامي والمنحى الطبيعي ففي المنحى الكلامي لم يخرج عن المبادئ الخمسة الأساسية التي وضعها المعتزلة والجاحظ يذكر المعتزلة باسم "أصحابنا" فهو لا يصرح بانتمائه إليهم فحسب بل إنه يقف موقفا عدائيا من سائر الفرق ولا يستثني منها إلا المعتزلة. ورغم هذا فإنه كان ينتقي من أفكارهم ما وجد منها مقنعا ويخالف ما عداها بجرأة وسخرية منقطعتي النظير وتفرد بآراء له خاصة اختلف بها عن فرقته[2] .

أما بالنسبة للمنحى الطبيعي فقد كان الجاحظ يبحث في الطبيعة محاولا الكشف عن القوانين المبثوثة فيها وذلك على غرار بعض رجال المعتزلة للذين حاولوا قبله عدة محاولات في دراسة عالم الطبيعة أو العالم المادي بوجه عام.

أما منهج البحث عند الجاحظ فهو منهج المعتزلة حيث استمد منهم منهجه العقلي ونزعته العقلانية التي صاحبته مفسرا كما صاحبته محدثا وصاحبته متكلما وفيلسوفا طبيعيا بل صاحبته أديبا بلاغيا[3].

فنظرا لسعة علمه وكثرة معارفه وصفه ابن يزداد بقوله: هو نسيج وحده في جميع العلوم, علم الكلام والأخبار وتأويل القرآن وأيام العرب مع ما فيه من الفصاحة.

[1] أحمد أبو زيد ,المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن, مكتبة المعارف للنشر والتوزيع,ط1 الرباط,1986 ص79

[2] عبد المجيد جوري, مكانة العقل في فلسفة الجاحظ, مذكرة ماجيستر , جامعة الجزائر,2003_2004,ص106

[3] جميل جبر, الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد, ص14

آثـــــاره:

كان الجاحظ موسوعة معرفية متنوعة وتعد كتبه مادة معرفية تنهل منها الأجيال السابقة واللاحقة, كتب تنوعت في شتى المعارف والعلوم كانت مرآة واضحة ترجمت أحوال البيئة في مختلف نزعاتها ,وقد اشتهر الجاحظ بكثرة التأليف فترك آثارا فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي وكما يقال: "أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا أبو حنيفة في الفقه والخليل في أدبه والجاحظ في تأليفه وأبو تمام في شعره[1] ."

صنف الجاحظ ما يقارب ثلاث مئة وستون كتاب في شتى العلوم والفنون ومناحي الحياة المختلفة ونذكر منها:

- كتاب الاحتجاج لنظم القرآن.
- في الشارب والمشروب.
- كتاب فضيلة المعتزلة.
- تهذيب الأخلاق.
- البـــخلاء.
- الحيـــوان.
- البيان والتبيين.
- العرب والعجم.
- التاج في أخلاق الملوك.
- المحاسن والأضداد.
- الآمـــل والمأمول.
- السودان على البيضان.
- رسائل الجاحظ: عديد من الرسائل التي حقق بعضها منها الدكتور عبد السلام هارون.

[1] ينظر, طه الحاجري, الجاحظ حياته وآثاره, ص186

كتب الجاحظ في الأدب والفكر والنقد والشعر فأجاد في كل ذلك وأظهر فرادة في البيان ومقدرة خاصة في الأدب بالإضافة إلى ما له نت فضل في جمع الآراء والمذاهب في كتبه وكونه من خطا أولى خطوات البحث والتجديد فإن له الفضل في

بحوثه الخاصة وآراءه الفريدة التي استمدها من ثقافته واستأثر بها دون غيره من باحثين في البيان العربي[1].

من خلال هذه الجولة مع آثار الجاحظ ندرك أن أدب الجاحظ بقي وسيبقى معينا ثريا لمعرفة عدة معارف مختلفة .

[1] ينظر, جميل جبر, الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد ,ص10

مفهوم البيان والتبيين عند الجاحظ:

1-البيـــان:

يقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[1] "

والبيان في هذا التعريف جاء عاما فالقصد منه: الفهم والإفهام ويستدل على ذلك ويستدل على ذلك بقوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فكل رسول أرسل إلى قومه بلغتهم من أجل أن يفهمهم ما أوحي وأن يفهموا عنه فهذا فيه وجه من أوجه البيان ومدار الأمر والغاية التي يجري إليها القارئ والسامع، إنما هو الفهم والإفهام فبقدر ما أوضحت فهو البيان[2] .

ومن خلال هذه التعريفات التي ذكرها الجاحظ للبيان يمكن القول بأنه اشترط للبيان أساسيين كما بينها محمد الصغير بناني في كتابه النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ:

إدراك الحسن والروعة مع ملاومة الواقع والحقيقة دون الاعتماد على المجاز لأن غاية البيان هي الفهم والإفهام دون استخدام أي صعوبة في توصيل المعنى للسامع...

التأكيد على الصدق والأخبار عن الحقيقة وإحراز مجانية لفظية في البيان...والفرق بين المجاز والبيان يمكن التماسه في هذا الخبر الذي يجد الجاحظ فيه نوعا من الغبطة في ترداده:

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر فقال: (إنه لمانع لحوزته مطاع في أذنيه) فقال الزبرقان: (إنه زمر المروءة ضيق العطن لئيم الخال) فنظر النبي صلى الله عليه وسلم في عينيه فقال:(يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما عملت, وغضبت فقلتأقبح ما

[1] اسماعيل عز الدين, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, دار النهضة العربية للطباعة والنشر,ص141

[2] الجاحظ, البيان والتبيين, تح عبد السلام محمد هارون,ج1, مكتبة الخانجي , ط7, القاهرة, 1998 ,ص76

عملت وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إنما من البيان لسحرا)[1]

كما أطلق الجاحظ لفظ المنطق كمرادف للبيان وهو يعني الإفصاح عما في الضمير من المعاني بواسطة الألفاظ وغيرها من الدلالات حيث يقول في هذا الصدد: "وقلنا في الحاجة إلى المنطق وكيف صار أعم نفعا وصار هو المشتق منه والمحمول عليه كيف جعلنا دلالة الأسماء الصامتة نطقا والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بيانا"

2- التبييـــن:

إن مفهوم التبيين يقترب من مفهوم البيان إلا أنه يختلف عنه بتضعيف عين الفعل أو المصدر فينتقل المعنى من البيان إلى حسن البيان وبالتالي نجد في مفهوم التبيين اهتمام المتكلم بالمخاطب وتوجيه الكلام إليه فالغاية من تضعيف العين كثيرا ما يؤتي بها للتعدية فهناك فرق بين: بين وبين كما أنه يأتي بها للتكثير وهكذا يكون مرادفا للبيان مع ميزة تميزه عنه هي التأكيد أو التوسيع في المعنى إلا أن حسن البيان يقتضي إعدادا خاصا وتعليما ورياضة فإنه أكثر ما يلاحظ عند المعلمين .

وإذا أردنا أن ندرك جيدا مفهوم التبيين علينا أن ندرسه من خلال مفهومين آخرين هما الفهم والافهام يقول الجاحظ "بعد أن نذكر أن مدار الأمر على البيان والتبيين والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم[2] "

أما فيما يخص التبيين فلا يكون إلا من المتكلم ويتجلى في صورة لفظ فمع اللفظ تكون عملية النطق وكيفية صدور الصوت وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين فالتلفظ لا يكون إلا من المتكلم وبالتالي صدور الخطاب أو الرسالة التي يرسلها المتكلم إلى المخاطب واللفظ هو الذي ينشئ خطاب المتكلم وبلاغة للسامع .

[1] ابو عثمان الجاحظ, البيان والتبيين, ج1, ص349

[1] المصدر السابق, ص394

ومهما يكن من وجود فروقات بين البيان والتبيين فما هو إلا كيفية من أبي عثمان للتعبير عن فلسفة كلامية رامية إلى التوفيق ربما بين العقل والدين وجعل الثاني سليل الأول لما كان العالم الصغير سليل العالم الكبير[1].

[1] ابراهيم أنيس, دلالة الألفاظ, مكتبة الأنجلو المصرية,1997,ص38

الفصل الأول:

المعتزلة ـ الأفكار والتطور ـ

المبحث الأول: المعتزلة بين المفهوم والنشأة

المبحث الثاني: مبادئ الاعتزال والأسس الفكرية له

المبحث الثالث: مسألة النظم عند المعتزلة وتطور الاعتزال في ظل المؤثرات الأجنبية

المبحث الأول: ماهية المعتزلة ونشأتها

لقد حظي الاعتزال بمكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي عقيدة وثقافة ومنهجا حيث أن الدارس للحضارة الإسلامية تستوقفه الانجازات التي أثرى بها أصحاب هذا المنهج الساحة العربية في مختلف مناهجها, وقبل التعرض لنشأته وأثره ينبغي لنا التطرق إلى ماهيته وأهم الدوافع التي مهدت لظهوره.

1–ماهية الاعتزال:

أ. لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور مادة *عزلة* يعزله وعزله فاعتزل وانعزل 'كنت بمعزل عن كذا وكذا أي كنت بموضع عزلة منه واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم

وجمل الجمل عزله عن الطروقة وناقة جمالية وثيقة تشبه الجمل في خلقتها وشدتها وعظمها وفي حديث أبي هريرة دعاه عمر إلى العمل بعد أن كان عزله فقال اني أخاف ثلاثا واثنين[1]

وجاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة *عزلة* تعزل تجاه جانبا فتنحي وتعازلوا انفرد بعضهم عن بعض والعزلة بالضم الاعتزال: الرمل المنفرد المنقطع ومن الدواب المائل الذنب عادة وسحاب لا مطرفية ونصيب الغائب من اللحم.[2]

ومما سبق فالاعتزال لغة هو التنحي والانفراد

ب . اصطلاحا:

المعتزلة مدرسة فكرية وفرقة دينية ظهرت بالبصرة في بداية القرن الثاني هجري وزعيم هذه الحركة ومؤسسها واصل بن عطاء [3] وسماهم بذلك*الحسن البصري*[4] كان لها الفضل الكبير في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة, وفي ذلك يقول سعيد مراد "لقد اختلفت الآراء وتعددت الاتجاهات حول مفهوم الاعتزال هل هو اعتزال سياسي؟ أم اعتزال عن مناهج الحياة الدنيا وزينتها؟ أم اعتزال الفئة الضالة وأهل الفتنة؟ أم أنه موقف فكري له أصوله وقواعده؟

---

[1] ابن منظور, لسان العرب, م 12, لأدب الحوزة, 1405هـ,ص506.

[2] مجدالدينمحمدبنيعقوبالفيروزأبادي, قاموسالمحيط ,دارالكتابالعربي,دط,ج4,ص155

[3] محمدعبدالغنيالشيخ, النثرالفني فيالعصر العباسيالأول, ديوانالمطبوعات,الجزائر,د.ط,1983,ج1,ص64

[*] أبوسعيدالحسنالبصري, تابعيمشهور, كان إمامأهلالبصرة(ت110هـ).

المعتزلة: أصحاب واصل بن عطاء, اعتزل عن مجلس الحسن البصري

المعتزلة: هم الواضعون لدعائم علم الكلام الاسلامي فبهم تأسس وبجهودهم تطورت موضوعاته, بما أضافوا اليه من مباحث جديدة أثرت موضوعاته, وكان لهم الدور الرئيسي في تطويره وصياغة مشكلاته ومعالجتها معالجة جادة هي أقرب الى روح التفلسف

المعتزلة: من أهم الفرق الكلامية ,بل وتعد أيضا مؤسس علم الكلام الحقيقي بمعنى أن لها نسقا مذهبيا متكاملا في علم الكلام.[1]

سنتطرق بالتفصيل الى نشأتها ومبادئها وأهم ما جاءت به هذه المدرسة.

2–العوامل التي مهدت لظهور المعتزلة:

لاشك أن هذا التوجه صاحبه كم هائل من العوامل التي أضفت حركة فكرية على المناخ العام الذي هيأ لظهور مذهب المعتزلة لتأخذ مكانها في المجتمع الإسلامي وتبلور فكرها في الحياة الدينية والسياسية ,كانت على الساحة تيارات فكرية طرحت موضوعات لم يلتفت إليها المسلمون من قبل فكان يكفيهم ايمانهم المطلق دون التعرض لهذه العقيدة بالنقاش أو الجدال.

وفي ضوء مما سبق يمكن حصر العوامل التي مهدت لظهور الاعتزال فيما يلي:

- عوامل سياسية
- عوامل دينية
- عوامل فكرية

1ـ العوامل السياسية: تعتبر العوامل السياسية أهم العوامل المساعدة على ظهور المعتزلة ذلك أن القران الكريم والسنة النبوية لم تحدد شروطا للخلافة أو لمن يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم, فعند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حدث انشقاق مذهبي يقسم المسلمين أدى إلى ظهور أحزاب سياسية وفرق دينية ألا وهو الصراع على الإمامة التي شكلت حجر الزاوية في قيام الفرق الإسلامية الكبرى كانت أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين وتشبعت فيها أرائهم وتكون حولها أهم الفرق

[1] عبد اللطيف بن رياض, منهج المعتزلة في توحيد الأسماء والصفات, مذكرة ماستر, قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة, الجامعة الاسلامية,غزة,2011,ص6

الإسلامية واليها يرد أصل كل خلاف يقول الحسن الأشعري [1]" أول ما حدث من المخالف بين المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم اختلافهم في الإمامة[2]

تمخض الخلاف بينهم حول مسألة سياسية أخذت صبغة دينية ألا وهي مسألة مرتكب الكبيرة والحكم عليه فالخوارج كانوا مناوئين للدولة الأموية فحاولوا إضفاء الشرعية لحربهم وبرروا ذلك بأن الدولة عاصية للحكم, سفاكة للدماء ,فهذه كبيرة كفروا بها وقام فريق المرجئة الذين أفلقتهم الحرمات المستباحة في هذه الحروب فقالوا بإرجاء الحكم على فاعل الكبيرة إلى يوم القيامة والى الله تعالى ان شاء عذبه وان شاء غفر له.ومن ثم ظهرت فرقة المعتزلة لتعلن أن فاعل الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر انه في منزلة بين المنزلتين, ذلك لأنه يشبه المؤمن في عقيدته, ولا يشبهه في عمله, ويشبه الكافر في عمله ولا يشبهه في عقيدته[3] .

2ـ العوامل الدينية: لقد كان المسلمون في بادئ عهدهم منهمكين بنشر الرسالة المحمدية وكان طريقهم الوحيد في ذلك الفتوحات الإسلامية التي أخذت جل تفكيرهم ولم تترك لهم مجالا للتفكير في مسائل دينية مستحدثة جلبتها تلك الفتوحات, ولما تحقق هدفهم واستقرت لهم الأوضاع وهدأت نفوسهم مالوا إلى البحث والتعمق في تلك المسائل إلى حد كبير وهاته تعتبر نقطة بداية الجدل وظهور النزاعات الدينية وصياغة العقائد صياغة فلسفية.

كان ذلك عاملا من عوامل التمهيد لظهور الفرق الإسلامية ويقول أحمد أمين" إن المسلمين لما فرغوا من الفتح واستقر بهم الأمر اتسع لهم الرزق اخذ عقلهم بتفلسف في الدين فيشير خلافات دينية ويجتهد بحثها والتوفيق بين مظاهرها ويكاد يكون هذا مظهرا عاما في ما يفرقه من أديان فهي أول أمرها عقيدة ساذجة قوية لا تأبه لخلاف.....ثم يأتي طور البحث والنظر وصبغ المسائل الدينية صبغة علمية فلسفية.[4]

---

[1] صاحب مذهب الأشاعرة ,ولد بالبصرة وتوفي بها ,من مؤلفاته "مقالات الاسلاميين

[2] ينظر,أبوالحسنالاشعري, تحقيقمحمدمحيالدينعبدالحميد, مقالاتالإسلاميين. دارالحداثة ,ط2,ص39

[3] أحمد محمود صبحي, دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين, مؤسسة الثقافة الجامعية. ط1, 2014,ص92

[4] أحمدأمين, ضحىالاسلام, دارالكتابالعربي, ط1, بيروت,لبنان, ج3,ص77

اختلفت الأقاويل وتعددت التفسيرات حول نشأة هذه النزاعات الدينية ولكن أيا كان التفسير لاشك أن القدر كان من أوائل المسائل المشار حولها ويشير في ذلك الى أن القران احتوى على ذلك لقوله تعالى{انا هديناه السبيل اما شاكرا أو كفورا}[1] أو {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}[2] وكذلك {كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء}[3] والآية {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}[4]

إن هناك فئة رفضت فكرة الجدل من الأساس ودعت المسلمين الى اجتنابه واعتبروه بدعة سكت الصحابة عنها, يقول الإمام مالك "إياكم والبدع, يا أبا عبد الله ما لبدع؟ قال: أهل البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة[5] "

والى ذلك لم يكن التفكير السني السلفي وحده كافيا بأساليبه التقليدية ونزعته الميالة الى التهرب من الجدل والحوار والاستعانة بالأساليب العقلية والمنطقية والفلسفية التي دخلت المجتمع الاسلامي من الثقافات والحضارات الأخرى.

3ـ العوامل الفكرية: لقد عرف المجتمع الاسلامي في القرن الثاني للهجري جدلا كبيرا في مسائل دينية متعددة وذلك لتنوع الأجناس واختلال الثقافات فظهر أثر عقائد البلاد المفتوحة ,لم تكن ببساطة الوثنية في صحراء العرب حتى وان استوطنها جموع من النصارى واليهود, إلا أنهم لم يطلعوا على المنطق والفلسفة كما كان في بلاد الشام والعراق أو بلاد فارس والهند من تنوع في المعتقد يتفاوت بينهم في التعقيد ولكل أسلحته الفكرية وعلماءه المدافعون عنه. وفي هذا الصدد يقول أحمد أمين "من دخل في الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية والمجوس فكثير من هؤلاء أسلموا ورؤوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ولم يزد عليهم إلا النطق بالشهادتين فسرعان ما أثاروا في الإسلام المسائل التي

---

[1] سورة الانسان ـ03ـ

[2] سورة الكهف ـ29ـ

[3] سورة المدثر ـ31ـ

[4] سورة التوبة ـ51ـ

[5] فالح الربيع, تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم, الدار الثقافية للنشر,القاهرة,ط1,1421هـ_2001م,ص20

كانت تثار في أديانهم وكانت هذه الأديان التي ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ونظمت طريق بحثها وتعمقت في ذلك كثيرا فهاجموا الإسلام وهو الدين الذي يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك, وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط بل كانت البلاد الإسلامية مملوءة بذوي الأديان المختلفة الذينظلوا على دينهم وكان منهم كثيرون في بلاد الدولة الأموية يشغلون مناصبا خطيرة[1] "

وعليه كان لابد من وجود من يتصدى لهم والتسلح بسلاحهم وتجادلهم جدلا علميا فكان للمعتزلة السبق في رفع هذا اللواء وكانت لهم المبادرة بمناظرة أهل الطوائف والملل الأخرى.

فتوصل القول إلى أن الظرف الذي مهد لظهور المعتزلة من متنوعا بطوائفه الفكرية ونزعاته العقلية, الدينية والسياسية والتي شكلت منحنيات شابت الفكر الإسلامي الذي بالرغم من التباين الذي طبعه, إلا أن بعض المسائل قد أشكلت عليه فكان أن جاءت فرقة المعتزلة بمنحى آخر في التعليل والطرح.

3ـ نشـأة المـعتزلـــة:

نشأت المعتزلة في مدينة البصرة بالعراق, في بداية القرن الثاني هجري يقول في ذلك زهدي جار الله: "لم تعين أصول التاريخ العربي السنة التي ظهر فيها المعتزلة وكل ما ذكرته أنهم ظهروا في البصرة في حلقة الحسن البصري, وانشقوا عنها ونحن نعلم أن الحسن البصري توفي سنة110هـ وأن الرجلين اللذين أسسا مدرسة الاعتزال وهما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ولدا سنة 80هـ_فلا يعقل أن يكونا قد بدأ هذه الحركة الفكرية قبل العشرين من حياتهما, وعلى ذلك يكون المعتزلة قد قاموا في بداية القرن الهجري الثاني في سنة محصورة بين 100_110هـ, وهذا يوافق ما يذهب إليه المقريزي من أنهم ظهروا بعد المائة الأولى من سني الهجرة[2] .

[1] أحمدأمين, ضحى الإسلام,ص91

[2] زهريجارالله, المعتزلة, المكتبةالأزهريةللتراث,د.ط,القاهرة,2002 ، ص12

بالإضافة إلى الاختلافات السياسية والعقيدية بشأن تعيين الأصلح لتولي منصب الخلافة والتي ظهرت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والتي هيأت الأرضية لبروز الاختلاف العقيدي والسياسي بين المسلمين الذي أدى في النهاية إلى ظهور المذاهب والتيارات الفكرية المختلفة.

إن ذكر المعتزلة ارتبط بحادثة اعتزال واصل بن عطاء عند سارية من سواري مسجد أستاذه الحسن البصري إذ يردد معظم المؤرخين القصة التالية لنقطة بدء نشوء هذه الفرقة

يروى قائلا: دخل أحد على الحسن البصري, فقال: يا إمام الدين, لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر, والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان....."فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا, فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق بل هو في منزلة بين المنزلتين, ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن, فقال الحسن,: اعتزل عنا واصل فسمي هو وأصحابه معتزلة[1]

إلا أن بعض المتأخرين من رجال المعتزلة أو المناوئين لها حاولوا رد مذهب الاعتزال إلى زمن يسبق زمن واصل بكثير حتى أن القاضي عبد الجبار عندما رتب طبقاتهم جعلها من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عصره عشر طبقات.

كما أن فرقة الزيدية من الشيعة تحاول إرجاع المذهب إلى آل البيت فيذهبون إلى أن واصل بن عطاء قد أخذ مبادئه عن محمد بن أبي طالب ابن الحنيفية فقد تتلمذ على يده وفرقة الزيدية من الشيعة يوافقون أصول المعتزلة إلا في مسألة الإمامة .

كما أن ابن المرتضى في كتابه "المنية والأمل" يعتبر جمعا من الصحابة الأجلاء رجالا في الطبقة الأولى للمعتزلة وعد علي بن أبي طالب على رأسهم ويروي الأخبار التي تدل على قوله بالقدر من الانسان ورفض الجبر. وأطلق لفظ المعتزلة بالمعنى السياسي على من اعتزلوا الحرب بين علي وخصومه متخذين موقف الحياد.

[1] فالحالربيعي ,تاريخالمعتزلةفكرهم وعقائدهم،ص17

إن المعتزلة وإن اتحدوا في اسم العلم الذي يعرفهم مع جمع من الصحابة أو من اعتزل الخلاف بين علي ومعاوية إلا أن الاعتزال كمذهب فكري له أصوله المعروفة لم يظهر ويتبلور كتيار محدد المعالم إلا بمفارقة واصل بن عطاء مجلس أستاذه وتشكل متنام تدريجيا وقد عبر هذا التيار عن ملامح الثقافة الجديدة التي تمثل بواكير الحركة العقلية والتي أخذت تنمو وتزدهر منذ ذلك الحين لتدافع عن الإسلام وتدمغ بالحجج والبرهان أعداءه من اليهود والنصارى والدهريين والزنادقة المشككين وقاموا بشرح المسائل العقلية وفق ما تأتي لهم من مقومات فكرية[1].

[1] ينظر, فالح الربيعي, تاريخ المعتزلة فكرهم و عقائدهم, ص19

المبحث الثاني: مبادئ المعتزلة والأسس الفكرية للاعتزال

1ـ مبادئ الاعتزال:

قام المعتزلة بتبني خمسة مبادئ رئيسية, اعتبروها الركيزة الأساسية التي لابد من توفرها في الشخص حتى يكون اعتزاليا يقول الخياط أحد رؤوس المعتزلة في القرن الثالث :"وليس يستحق أحدهم اسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة التوحيد والعدل, الوعد والوعيد ,والمنزلة بين المنزلتين, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]

أول الأصول عندهم هو:

1ـ التوحيد: يعد هذا الأصل من أهم الأصول ولب مذهبهم فهو الأصل الأقوى الذي تجتمع حوله المعتزلة, فهم يعتبرون أنفسهم أشد الطوائف الإسلامية إيمانا بالتوحيد ودفاعا عنه إزاء الديانات والمذاهب المشركة التي تعتقد بوجود أكثر من اله واحد وذلك من خلال مناظراتهم وكتبهم ورسائلهم المتعمقة والواسعة التي ألقوها في هذا المجال للرد على أصحاب تلك العقائد والديانات

ومن شدة تشددهم في أصل التوحيد فقد نفوا أن يكون لله تعالى صفات غير ذلك, حيث أراد به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين وقد أولوا الآيات التي يفهم منها مشابهته للمخلوقات مثل :"يد الله فوق أيديهم" فمعنى اليد في الآية عندهم القدرة[2]

وقد أجاد الشهر ستان في وصف عقيدة المعتزلة بشأن التوحيد حيث قال :فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم ,والقدم أخص وصف ذاته و نفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته ,قادر بذاته, حي بذاته لا يعلم قدرة وحياة , هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية .واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل ,واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ونفي التشبيه

[1] أبو الحسن الخياط, الانتصار, د.ط, القاهرة,1344هـ, ص126

[2] فالحالربيعي, تاريخالمعتزلةفكرهم و عقائدهم, ص42

عنه من كل وجهة ومكانا وصورة وتميزا وانتقالا وزوالا وتغيرا وتأثرا وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيد [1]ا

2ـ العـدل: يأتي هذا الأصل في المرتبة الثانية بعد التوحيد وهو من الركائز الخمسة التي تقوم عليها المعتزلة ويراد به أن الله تعالى أفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ولا يخل بما هو واجب ويشتمل هذا الأصل على مسائل كثيرة سماها القاضي عبد الجبار بعلوم العدل منها نفي القبيح عن الله تعالى وثبوت اللطف الالهي بعباده ونفي التكليف بما لا يطاق.

ومن تلك المسائل والقضايا التي أثارها المعتزلة فيما يتعلق بمبدأ العدل وهي حرية الانسان في أفعاله وإرادته وهي حرية ضرورية لكي يثاب ويعاقب على أعماله دون أن يظلمه الله, لأن الإنسان مخير في أفعاله ووجه الارتباط بين هذه المسألة والعدل أن الله تعالى كلف عباده بأعمال وعد المطيع منهم بالثواب وتوعد العاصي بالعقاب ليكون ذا اختيار وإرادة حرة حتى يكون عقابه عند العصيان وثوابه عند الطاعة عدلا.[2]

والذي يهمنا من ذلك إيمان المعتزلة البدور العقل في استنباط الأحكام واعتمادهم عليه في مجادلاتهم ومناظراتهم وانعكاس هذه النزعة العقلية على نتاجاتهم النثرية ومن بينها الانتاجات الأدبية التي تميزت بطابع عقلي ومنطقي قوي استطاعوا من خلاله أن يمزجوا مزجا رائعا بين الأساليب العلمية والموضوعات الأدبية.

جاء هذا لتحديد أن العقل أمر موكول له في تحديد الحسن والقبح وهي المسألة أو القضية الأولى التي أثارها المعتزلة فيما يتعلق بأصل العدل الإلهي.

[1] فالح الربيعي, تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم,ص41

[2] عليالشابي, أبولبابةحسن , المعتزلةبينالفكروالعمل, د,ط, أكتوبر1979,ص44

3ـ الوعد والوعيد: يعني هذا المبدأ أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته وهذا الأصل متفرع من المبدأ الثاني وهو العدل وهم لا يختلفون في تفسيره عن سائر فرق المسلمين

وأما بالنسبة إلى مرتكب الكبيرة وحكمه الأخروي أنه مخلد في النار استنادا إلى أصل الوعيد الإلهي , إلا أن عذابه أخف من عذاب المشرك أو الكافر نظرا إلا أنه يعتبر فاسقا من وجهة نظرهم وليس بمشرك أو كافر[1]

4ـ المنزلة بين المنزلتين: كما مر فإن هذا الأصل هو الذي ميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق وهو الذي ارتبط بظهورهم ونشأتهم إذ اتخذوا من خلاله موقفا وسطا بين الخوارج و المرجئة وقد سبق وأن تطرقنا إلى هذا الأصل في نشأةالمعتزلة من خلال رأي الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة فاسق , فقد اعتزلوا الرأيين جميعا وقالوا بأنه في منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر.[2]

5ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هذا الحكم أو الأصل متفق على وجوبه عند سائر المسلمين إلا أن المعتزلة افترقوا فيه عنهم في الارتفاع به من ناحية الوجوب إلى مرتبة الأصول الدينية في حين ترى فرق المسلمين الأخرى أنه يمثل فرعا من فروع الدين مع اختلاف وسائل تطبيق هذه الفريضة بين اللسان فقط, وبين اللسان واليد والسيف, فأما المعتزلة فيرون وجوب استعمال السيف في تطبيق هذه الفريضة بالإضافة إلى الوسائل الأخرى.[3]

2ـ الأسس الفكرية للاعتزال :

توضيح الأسس الفكرية للاعتزال يقتضي الدراسة الدقيق للمناهج التي أقاموا عليها أبحاثهم في هذه المجالات العلمية كلها ولذلك سنحاول الإلمام بالأسس العامة للفكر الاعتزالي متوخين في ذلك الوقوف عند الأصول الكبرى.

---

[1] فالحالربيعي ,تاريخالمعتزلةفكرهموعقائدهم,ص44

[2] المرجع نفسه, ص45

[3] المرجع نفسه ,ص46

1. العقــل: للعقل مكانة مرموقة في التفكير الاعتزالي , فهو الرائد الذي لا يكذب والدليل الذي لا يزيغ, فقد حكموه في كل شيء أخضعوا له العقائد الدينية واعتمدوا عليه في تأويل القرآن وتفسيره ونقد الحديث وتصحيحه وفي الدفاع عن الإسلام ومناظرة خصومه لقد جعلوه المعيار الصحيح في كل شيء والمقياس الثابت في التمييز بين الحق والباطل والخطأ والصواب.فجعلوا النظر العقلي أول واجب على المكلف حتى أن خصومهم اتهموهم بتقديم المعقول على المنقول وذلك أن بعض أعلامهم كالقاضي عبد الجبار أشار إلى أن الاستدلال بالقرآن تابع لمعرفة الله ومعرفة الله متوقفة على النظر العقلي كما أن بعضهم رد الحديث إذا عارض منهجهم العقلي.[1]

وقد حمل المعتزلة على أهل الحديث ووسموهم بالتقليد والجمود والجهل وأبطلوا التقليد من حيث أن المقلد يمكن أن يقلد من كان على باطل كما يقلد من كان على حق ولهذا أوجبوا على كل مكلف أن يعرف الله بالدليل العقل

2. الشك والتجربة: يعد الشك والتجربة ركنان هامان ضمن المنهج الفكري الاعتزالي فهم أول من أخذ بهاذين المبدأين في الفكر الإسلامي فالشك هو الطريق إلى اليقين وأن لا يقين بدون شك وفي ذلك يقول النظام " الشاك أقرب إليك من الجاحد, ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك, ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك"

فرأى الجاحظ أنه لابد من تعلم الشك ومعرفة مواضعه فلمعرفة حالات اليقين لابد من معرفة حالات الشك وفي ذلك قال :"ويعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما فلو لم يكن في ذلك إلا التعرف والتثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه"

ويرى المعتزلة أن أصول علم الكلام هي التي تعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ وتمييز الحق من الباطل ولا يقوم لهذا إلا المتكلمون والمعتزلة منهم خاصة قال الجاحظ:" لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام.....ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون[2] "

[1] أحمدأبوزيد ,المنحىالاعتزاليفيالبيانواعجازالقرآن ,ص36

[2] المصدر نفسه, ص42

أما التجربة فهي الطريقة العلمية الصحيحة التي تمكن من تحقيق المعارف وتمحيصها وقد أخذ بها المعتزلة واعتمدوا عليها.

3ـ التأويل العقلي: التأويل العقلي أساس مهم في المنهج الفكري الاعتزالي فبواسطته تمكن المعتزلة من التوفيق بين أصول مذهبهم وبين نصوص القرآن والحديث فمتى وجدوا في هذين المصدرين نصا يعارض أصلا مذهبهم أعملوا فيه التأويل وصرفوا ألفاظه إلى معان موافقة للعقل.

والتأويل عند المعتزلة أمر اقتضته الحكمة الإلهية ليجتهد الناس في تفسير كلام الله ويتنافسوا في تحصيل ما أودعه الله فيه من الحكمة لاسيما وأن ألفاظ القرآن والحديث تعبر عن المعاني في كثير من الأحيان بأساليب الإشارة والمجاز فهي تحتمل أوجها من المعاني

ومن أهم النصوص التي أخضعها المعتزلة للتأويل العقلي تلك الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بالذات الالهية وصفات الله تعالى فهم يجردونها من المعاني التي لا تليق بمقام الألوهية كالتشبيه والتجسيم وغير ذلك من الاعتقادات والتصورات الفاسدة وقد وجد في عصرهم من كان بالتحسين فكان لابد من الرد عليه [1]

4ـ التحسين والتقبيح العقليين: يعد هذا المبدأ من أهم أسس الفكر الاعتزالي وهو متفرع من المبدأ الثاني من أصولهم الخمسة وهو العدل الإلــهي وهم يرون أن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان في الأفعال فالصدق يرجع حسنه إليه في ذاته وكذلك الكذب ويحسن الفعل الحسن لانتقاء وجوه القبح عنه ويقبح الفعل القبيح لكونه كذبا أو ظلما أو جهلا أو أمرا بقبح أو إرادة له ومن حيث هو ضرر لا نفع فيه ومرجع الحكم بحسن الحسن وقبح القبيح هو العقل لذلك اتخذه المعتزلة حكما على الأفعال وحكم العقل على الأفعال يكون بطريق الاستدلال فمتى كشف العقل عن وجوه الحسن أو القبح في فعل من الأفعال علم الحكم المتعلق بذلك الفعل ولو كان الحسن والقبح لا يدركان بالعقل بداهة لما اتفق عليه العقلاء ورد عليهم المعتزلة أن تعليل الأحكام وقياس بعضها البعض واستنباطها من أصولها وفق هذا القياس دليل على مبدأ الحسن والقبح العقليين.[2]

---

[1] أحمدأبوزيد ,المنحىالاعتزاليفيالبيانواعجازالقرآن،ص45

[2] المصدر نفسه, ص47

ويلاحظ أن الأسس الفكرية للاعتزال كلها ترجع إلى العقل والإعلاء من شأنه وتحكيمه في ما عداه واعتماده في تمحيص الأخبار والتأويل والتحسين والتقبيح غير ذلك.

المبحث الثالث:مسألة النظم عند المعتزلة وتطور الاعتزال في ظل المؤثرات الأجنبية.

1. مسألة النظم عند المعتزلة.

منذ القرن الثاني للهجرة أصبح النقد الأدبي يحتكم إلى مناهج محددة ودقيقة يعتبر هذا الاحتكاك من الوسائل الناجحة في تناول موضوعات القرآن الكريم ونقله إلى نظريات ومذاهب أثرى منها الأدب العربي والاصطلاح اللغوي ومن أبرز هذه النظريات نجد نظرية "النظم".

وحدد المعتزلة مفهوم النظم أنه: "أن الكلام حروف مقطعة وأصوات منظمة وهو فعل المتكلم ولما مهدوا هذا الأساس قاسوا عليه كلام الله فأدى بهم هذا القياس إلى الاعتقاد بأنه مخلوق محدث وهذا الاعتقاد هو الذي حدد وجهة نظرهم في إعجاز القرآن, فصاغوا نظرية النظم في صورة متوافقة مع هذا الأصل"[1].

ويرى النظام من خلال النظرية التي جاء بها أن البشر باستطاعتهم مجاراة لغة القرآن ولكن يكمن الإعجاز في صفة الإرادة الإلهية عبر مفهوم السلب ,لكن المنحى الاعتزالي التي تغير اتجاهه بالأفكار الجاحظية التي واجهت هذه الادعاءات بحيث حول مجرى النقاش وأسس لقواعد يرتكز عليها النظم. وعمد الجاحظ إلى التفرقة بين نظم الكلام ونظم القرآن, إن الجاحظ لم يشر هو الآخر إلى مصطلح النظم وإنما أشار إلى " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الرهان فقد ذكر الجاحظ (التلاحم, السبك والإفراغ).[2]

كما تحدث عن اللفظة المفردة واشترط فيه شروطا وهي "ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخيرا في جنسه وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخف على ألسن الرواة.

---

[1] أحمدأبوزيد ,المنحىالاعتزاليفيالبيانواعجازالقرآنص293

[2] ينظر, فتحي أحمد عامر, فكرة التنظيم بين وجوه الاعجاز في القرآن الكريم, منشأة المعارف, دط, مصر,1991,ص30

إن الجاحظ يجعل تلاحم أجزاء الكلام وحسن سبكه وإفراغه واختيار ألفاظه وبعده عن التعقيد مما يسهل وصوله إلى النفوس وفهمه ومن هنا يبرز لنا اهتمام الجاحظ بالنظم.

ويرى الجاحظ أن الفصاحة صفة الألفاظ ويفرق بينها وبين البلاغة من شأنها التعلق بالنظم كله من حيث حسن إفادته للمعنى على عكس الألفاظ التي يراعي فيها حسها الذاتي فكأنها شرط من شروط استكمال البلاغة.

كما أن جرس الحروف عند الجاحظ في وقع الألفاظ على السمع هذا ما سيبني عليه مفكر معتزلي آخر نظريته لآخذ مكامن الجمال ولم يقف دور الجاحظ هنا في رسم ملامح نظرية النظم المؤكدة للإعجاز القرآني بل عمل على استخراج أسرار النص.[1]

وهناك عشرات المسائل الجاحظية المؤيدة للإعجاز القرآني من جهة وانفتاح النص وفق الأدوات التفسيرية والبلاغية والتأويلية فبعد الكلام عن المفردات التفت الجاحظ للكلام عن القرآن وربطه بالإعجاز وركز على الصرفة إذ أفرد حديثا بين فيه عجز الشعوب بالإتيان بمثله وهي وجه من الإعجاز فشلت العرب فيه وأقرت بأن معجزة القرآن في نظمه ,ووقف الجاحظ لنصرة القرآن وذلك من خلال مساهمته في إيضاح معانيه مؤكدا إعجازه في النظم ويحدثنا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كيف خالف يمنع الكلام الموزون وهو المنثور غير المقفى على مخارج الأشعار والأسجاع وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج.[2]

ونرى أن جهود المعتزلة في هذه النظرية كانت جبارة كونها أول من أرست مفهوما للنظم كما أن هذه الفرقة تعتبر من الأوائل الذين أولوا اهتماماتهم بنظرية النظم. وبهذا نجد أن الجاحظ أول من تطرق لها أما القاضي عبد الجبار فكان من أحسن من قررها كونه أول من عرفها في موسوعته " المغني" وبهذا نجد أن المعتزلة كانوا السباقين على الأشاعرة في هذه النظرية.[3]

---

[1] أحمدأبوزيد, المنحىالاعتزاليفيالبيانواعجازالقرآن,ص294

[2] ينظر, منير سلطان, إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة, منشأة المعرف,ط3, 1986,ص75

[3] المرجع نفسه, ص77

2ـ تطور الاعتزال في ظل المؤثرات الأجنبية.

مثل الاعتزال اتجاها جديدا في الفكر العربي وكان من أبرز مظاهره محاولة إيجاد أدوات فكرية ومنهجية لمواجهة التحدي الفكري الذي واجه الإسلام باعتبار المعتزلة مدرسة فلسفية فكرية كلامية كان نشاطها يرتكز على الجانب العقائدي من الدين الإسلامي وقد ساهمت المعتقدات والثقافات التي كانت سائدة أنداك في البلدان والأقطار التي شملتها الفتوحات الإسلامية إلى حد كبير تأثيراتها الواضحة على الدراسات والبحوث العقيدية لدى المسلمين عامة والمعتزلة خاصة.

بدأ باختلاط الأعاجم بالعرب يمارس تأثيراته الفكرية على المجتمع الإسلامي وعلى اثر هذا الاختلاط بدأت الثقافات والحضارات الأخرى التي نقلها الأعاجم معهم إلى الفكر الإسلامي تمارس تأثيرها على الحياة الفكرية والثقافية ومن بين هذه الثقافات التي كان لها الأثر الكبير في إنماء الفكر الاعتزالي ما يلي:

1ـ الثقافة الفارسية:

كانت الفرس قناة واصلة بين العرب وغيرهم من الأعاجم حيث نقلت اليهم مختلف ما زخرت به ثقافتهم وما أطلعوا عليه من غيرهم وخصوص الثقافة اليونانية والهندية ويلوح لنا هذا المجال ابن المقفع كواحد من أبرز الذين أسهموا بنصيب وافر في نقل الثقافة الفارسية إلى العربية فقد ترجم في مجال التاريخ كتاب (الأدب الصغير، كليلة ودمنة) الذي هو في الأصل كتاب هندي نقل إلى الفارسية[1]

فكان للتأثير الفارسي في الحياة الفكرية العربية صورا بدت جلية في المجال الاجتماعي مما اقتبسه العرب عن الفرس مع ازدهار الترجمة وحول في العقلية العربية ,وقد لعبت الديانات القديمة عند الفرس دورا في تطوير علم الكلام وخاصة مذهب المعتزلة الذي درس علوم اللآهوت حتى يرد على أهل الملل والنحل.

كانت الثقافة الفارسية مدخلا واسعا دخلت عبره المؤثرات الثقافية الأجنبية الأخرى إلى الثقافة العربية وأولها المؤثرات اليونانية والهندية.

[1] عبد الحكيم بلبع, أدب المعتزلة, دار النهضة للطباعة, دط, مصر ,1979,ص46

2ـ الثقافة الهنــدية:

تركت الثقافة الهندية تأثيرها على الحضارة الاسلامية في مختلف فروعها وخصوصا في مجال البلاغة والحكمة وخصوصا البلاغة التي تركت أثرها البليغ في الاعتزال خاصة حيث نرى الجاحظ قد ذكر في كتابه "البيان والتبيين" ما نقل عن صحيفة هندية في البلاغة جاء في مقدمتها:

"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل الحظ مخير اللفظ لا سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل للتصرف في طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينفخ الألفاظ كل النفخ ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادق حكيما أو فيلسوفا علميا[1]"

فكم من أقوال في الحكمة الأخلاقية والسياسية أخذت من قصص الهنود وأساطيرهم فالأدب الهندي يمكن وصفه بأنه أدب تغلب عليه الرمزية قد أفاد منه العرب فكتاب البخلاء للجاحظ لم يكن للتهكم فقط وإنما أريد به الإقلاع عن سلوك البخل السيء إلى جانت القصص التصويرية على لسان الحيوان ككتاب "السندباد[2]"

ولعل العقل الهندي قد ساهم في بلورة الفكر، سيما الفكر الاعتزالي الذي تأثر بالمذاهب الفلسفية الهندية التي كان منها ما يقول بالتناسخ والرجعة كما يقول بعض الشيعة والمتصوفة بذلك .

3ـ الثقافة اليونانيــة:

لقد كان لحركة الترجمة الأثر الكبير في نقل الثقافة اليونانية إلى العربية وخصوصا في العصر المأمون الذي أنشأ دار الحكمة واعتبرها المذهب الرسمي للدولة وأنه هو نفسه كان معتنقا لمذهب الاعتزال ومؤمنا بالثقافة العقلية وحرية التفكير إلى حد بعيد.

إن انتقال هذه الثقافة إلى العربية أحدث نشاطا عقليا أفاد منه المسلمون في علوم شتى إلا أن تأثرهم كان أعمق في المنطق والفلسفة مما ولد لديهم طاقة جدلية استطاع بها المتكلمون الدفاع عن أرائهم وخاصة المعتزلة قفد حاولوا الإلمام بدقائق الفلسفة وهكذا تم لهم الرد على المارقين من المذاهب

[1] فالح الربيعي, تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم,ص40

[2] أحمد أمين, ضحى الإسلام, ص61

الأخرى .فالفلسفة اليونانية التي تمجد العقل وتحافظ على حرية الآراء قد أبانت عن ملامحها الأصلية في الفكر الإسلامي[1].

في ظل هذا الكم الهائل للثقافات المتفاعلة وفي أحضان هذه البيئة الحافلة بالمتناقضات والمذاهب المختلفة تولدت عقلية فريدة, تلك هي عقلية المعتزلة الفذة التي استجابت للمؤثرات مع حفاظها على هويتها الأصلية وخلقت كيان هذه المدرسة التي لا جرم أنها ستورث أدبا شعرا كان أو نثرا مطبوعا بطابع من الخصوصية يدلل على مذهبهم وآرائهم .

[1] فالح الربيعي, تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم,ص41

الفصل الثاني:

الاعتزالية في أدب الجاحظ من خلال البيان والتبيين

المبحث الأول: أثر الاعتزال في تأليف البيان والتبيين

المبحث الثاني: تجليات الاعتزال في موضوعات البيان والتبيين

المبحث الأول : أثر الاعتزال في تأليف البيان والتبيين.

التعريف بالكتاب ومحتواه:

يعد كتاب البيان والتبيين من أمهات الكتب في الأدب العربي ,وهو آخر ما ألفه الجاحظ في حياته. فهو بمثابة حوصلة ونتيجة تجارب كونت ثقافة الجاحظ قصد به التعريف بالبيان والبلاغة والخطابة فذكر محاسنها ومساوئها وشرح فنونها وألوانها. قال ابن خلدون: "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ, وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها ".[1]

محتواه:

تحدث الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن التعريف بالبيان والبلاغة والخطابة ,فبدأ بالاستفادة من العي ثم تطرق إلى خصاصة اللسان وعاب التشدق والتقصير. ثم كشف عن الاختلاف في لغة العرب في استعمال الألفاظ. حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيوب اللسان مشيرا في ذلك إلى أشهر الخطب والخطباء سواء من اشتهر منهم بسلامة النطق أو بعيب فيه ، وفي حديث آخر يشير إلى البلاغة ,فيبين علاقة البلاغة بالشعر واللسان وفي الصمت وفي الكلام المسجع وكذلك قضية اللفظ والمعنى مستشهدا بأدلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم والنثر, هذا بالنسبة للجزء الأول.

ثم انتقل في الجزء الثاني للرد على الشعوبية مدافعا عن فصاحة العرب كما تطرق إلى الكلام عن الزهد والنساك وعن كلامهم ومواعظهم كما أن الكتاب لم يخل من نوادر الجاحظ التي شملت بعض الحمقى والمجانين.[2]

[1] أبي عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين, ص215,

[2] ينظر, عز الدين إسماعيل, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, ص139

سبب تأليف الكتاب:

أما سبب تأليف الجاحظ لهذا الكتاب "البيان والتبيين" فيرى أحد الباحثين أنه دفاعا عن البيان العربي في مختلف مظاهره ذلك أن الجاحظ تحدث عن الشعوبية ودعاتها وتنقصها من العرب لأنهم يستعينون بالعمي والمحاصر واعتماداتهم على القس فترى الجاحظ يرد على هذه الاتهامات ويبين ما للعرب من فضل على غيرهم من الأمم حيث يقول في مقدمة الجزء الثاني: "أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوب"[1]

حيث جاء البيان والتبيين نتيجة أسباب ودوافع أسهمت في ظهوره وانتشاره حتى أصبح نبراسا ونورا في العالم أضاء الطريق لما جاء بعده وكان منبعا ومصدرا للعديد من النظريات والدراسات خاصة في الميدان البلاغي واللساني والدلالي فقد كانا دافعان أساسيان جعلا الجاحظ يقدم على تأليف هذا السفر .هما على التوالي:

الدافع الأول: الحياة العقلية المعقدة التي فرضت على البيئات الاسلامية قد أوجدت فن المناظرة والخطابة وهما اللونان الأدبيان اللذان كان يمارسان في بيئة البصرة حيث نشرت الخطابة والجدل والمناظرات بين طوائف الملل والنحل المختلفة فالخطابة لم تعد كما كانت شيئا يجري به الطبع وتتدفق به العاطفة ويوحي به الوجدان ولاريب أن ذلك يرجع إلى سيطرة الروح العقلية على تلك البيئات إذا كانت هذه الروح تستدعي دائما التأمل والنظر ومراجعة الأسباب واستخلاص النتائج.[2]

[1] أبي عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين ,ص114

[2] عز الدين اسماعيل, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, ص140

الدافع الـثاني: هو الرد على الشعوبية*[1] التي كانت تعيب على العرب خطبهم وتقاليدهم في إلقاء تلك الخطب ومنها الإمساك بالعصي وقد نص الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنه نصب نفسه مدافعا على فصاحة العرب داحضا بذلك اتهامات الشعوبيين[2] فقد قال في فصل العصا في الجزء الثالث من الكتاب: "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية وما يتحلى باسم التسوية و بمطاعنهم على خطباء العرب :بأخذ المختصرة عند مناقلة الكلام ومجالسة الخصوم بالموزون والمقفى والمنثور الذي لم يقف"[3]

وأيضا نستطيع أن نضيف الى ذلك عوامل ذاتية نفسية داخلية فالجاحظ في تأليفه هذا الكتاب ربما كان يصغي إلى ذلك الصوت الذي يصيح من أعماق نفسه ويستجيب في نفس الوقت إلى ذلك الحنين الطبيعي الذي يحاول أن يرجع به إلى أيامه الأولى وهي أيام تعبر عن العصر الذهبي للبيان العربي والتي نشأ بها الجاحظ ورأى فيها حلقات المتكلمين ومجالس المتناظرين تغمرهم الحماسة الدينية وروح المنافسة والمغالبة والحرص على الإقناع وعلى الظفر بإعجاب هؤلاء النظارة الذين جاؤوا يستمعون بمشاهدة هذه المناظرات ويلتمسون هذا النوع من اللذة الفنية[4]

فكان وضع الجاحظ لهذا الكتاب نوع من ارضاء ذلك الحنين الغالب عليه نحو ذلك العهد المنصرم.

منهجية الكـــتاب وأسلوبه:

إن عادة الجاحظ في تأليفه أن يرسل نفسه على سجيتها فلا يتقيد بنظام محكم يرسمه ولا يلتزم منهجا يحذوه ولذلك نراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعمها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى ثم يعود إلى القضية الأولى والتي كانت طريقة علماء عصره فقد استهل الجاحظ "البيان والتبيين" بالتعوذ من فتنة القول التي يبدوا أنها مشحوذة على جانب كبير من اهتمامه حيث أن لكل

---

* الشعوبية لفظ مأخوذ من الشعوب وهي جمع شعب وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة وأشمل

[1] ينظر, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, ص141

[2] أبو عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين, ص5

[3] ينظر, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, ص141

كتاب منهج منفرد به عن غيره من أصحاب صنعته والجاحظ كغيره من الكتاب له منهج خاص به والذي يميزه عن غيره.

حيث يتضح لنا من خلال دراسة كتاب "البيان والتبيين" أن الجاحظ اعتمد على منهجين هما المنهج الفكري والمنهج التعبيري

1-المنهج الفكري: حيث يتميز بعدة خصائص تتمثل في ما يلي:

1-1-الجدل: فهم الجاحظ بمعنى المناظرة أو النقاش الذي يدور بين شخصين يمثلان أفكار متناقضة ولهذا بنى جدله على التناقض واستخدمه كما استخدمه أفلاطون كوسيلة للكشف عن الحقيقة حيث أنه يرى أن الجدل يقوم على مبدأ مفاده أن معرفة الشيء كمعرفة كاملة لا تأتي من النظر إليه من زاوية واحدة أو جانب واحد وكما أن القاضي قبل إصدار حكمه لابد له من سماع أقوال الخصمين هكذا الشأن في جميع المسائل لا يمكن إصدار حكم عادل وصحيح في أية مسألة أو قضية إلا بعد الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة حولها وقد طبق الجاحظ هذا المبدأ في أبحاثه فأعطى لنفسه دور الحكم الذي ينصت أولا إلى ما يدلي به الخصوم من حجج مختلفة لدعم مواقفهم المتباينة.[1]

[1] علي بو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ , دار ومكتبة الهلال, ط1, بيروت, 1972, ص457

1-2-الاستـقراء:

الاستقراء هو النظر في الوقائع الجزئية لاستخراج حكم كلي عند البحث في أمر من الأمور أو هو سير الفكر من الخاص الفردي إلى العام الكلي.[1]

حيث أن الجاحظ كان قبل أن يصدر حكما في مسألة ما يذهب إلى الإحاطة بكل جوانبها ليخرج في الأخير بحكم نهائي فيها فقد طبق الاستقراء في المنحى الاجمالي بشكل ناجح ودرس اللغة من حيث الألفاظ والتراكيب والصيغ وعلاقة ذلك بالجمال ومن ذلك أطلق اسم البيان بمعنى الدلالة على المعني وقد بلغت به الثقة بالنفس حدا جعله يقرر مثلا أنه أحصى أنواع الدلالات فوجدها خمسا لا تزيد ولا تنقص وهي :اللفظ ,الإشارة ,الحال ,العقد والخط.[2]

فانطلق الجاحظ من خلال دراسته للدلالة التي تشمل كل الوسائل التعبيرية واستخراج منها أصناف الدلالة المذكورة سابقا وجعلها تشمل كل البيان والكلام البليغ ولهذا يقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ وخمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال ولكل واحدة من هذه صورة بائنة من صورة صاحبتها وحيلة مخالفة لحيلة أختها وهي التي تكشف لك أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير ....."[3]

[1] علي بو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ, ص457

[2] المرجع نفسه,ص458

[3] أبو عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين, ص55

1-3-الـشـــك:

إن الشك الذي لازم الجاحظ حمله على عدم التسليم بالأخبار والآراء التي يسمعها أو يقرأها إلا بعد الفحص والتدقيق والملاحظة الشديدة لأنه يعتقد أن آراء الناس وأخبارهم عرضة للضلال والكذب كما أن الظواهر الطبيعية تخفي تحتها حقائق أو نواميس يجب البحث عنها وعدم الاكتفاء بمعطيات الحس الخارجية حيث يعرف الشك بكونه نقيض اليقين وهو ضابط يحكم معطيات الفعل ويمنع من الاستسلام لمعطيات الحواس ووسيلة لمعرفة الحقائق حيث يحضى الشك عند الجاحظ أهمية كبيرة خصوصا وأنه خص في كتابه الحيوان بابا بعنوان "مواضيع الشك واليقين"[1]

حيث أصبح مبدأ الشك عنصرا مهما لازم تفكير الجاحظ وعمل به وطبقته في أبحاثه تطبيقا رائعا فهو لا يقبل الروايات والأخبار التي تنتهي إليه إلا بعد تمحيصها وفحصها لاختبار مدى صحتها.

ونجد أن الجاحظ قد دعا إلى ذلك بقوله: "أعرف مواضيع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها موضع اليقين والحالات الموجبة لها ويتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما فلو لم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه"[2]

ومن ذلك ما ذكره في كتابه "البيان والتبيين" من أقوال يتحدث فيها عن رسائل الفرس والتشكيك في انتسابها لهم. فالشك عامل من عوامل البحث العقلي فهو يتجاوز ما يدور من اسنادات النقل فيبحث في صفحة الأخبار ويميز بينها بحجج منطقية تدعم الروايات المنقولة أو ترفضها .[3]

---

[1] ينظر, الجاحظ, الحيوان, دار الكتب العلمية, بيروت'ط1, 1996,ص35

[2] المصدر نفسه,ج1,ص36

[3] ينظر, الو عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين, ص 405

1-4-الاستطراد:

هو الخروج عن موضوع البحث الى موضوعات أخرى بعيدة أو قريبة منه والجاحظ من هذه الجهة لا يحافظ على وحدة الموضوع بل يقحم فيه موضوعات جانبية وغريبة.

في حيث يقول في كتابه "البيان والتبيين ":وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة المنة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلو على الخصم ويعجون بخلاف ذلك.[1]

ثم يأتي كثير من الشواهد الشعرية ويستطرد منه إلى كلام آخر في إنجاز الأمهات وعندما يشعر أنه خرج عن الموضوع يقول معتذرا: وهذا الباب يقع في كتاب الانسان من كتاب الحيوان وفي فضل ما بين الذكر والأنثى تماما وليس هذا الباب مما يدخل كتاب البيان والتبيين ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارئ الكتاب لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيد في نشاطه.

فالجاحظ مولع بالاستطراد فيما يكتب والمتأمل في مؤلفاته يرى بوضوح أن ذلك الانتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن ثقافة واسعة تمثل عمره أحسن تمثيل.[2]

وفي الأخير فإن هذا المنهج الفكري الذي عددنا مواضيعه كان يحتكم إلى سلطان العقل الذي يمتاز به الجاحظ كغيره من علماء المعتزلة.

2-المنهج التعبيري:

حيث أن هذا المنهج يتضمن الشروط التي ينبغي أن يتبعها الأديب أو المؤلف لكي يكون ناجحا في كتاباته وتتضمن ما يلي:

2-1-الموهبة:

على الأديب أن يكون ذا موهبة تمكنه من الكتابة والتأليف حيث يقول الجاحظ " إنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إذا كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق فإن تمنع عليك بعد

[1] علي أبو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ, 464

[2] المرجع السابق, ص468

ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال فالمعتزلة أن تتحول من هذه إلى أشهى الصناعات إليك وأخفاها عليك فإنك لم تنازع إليه إلا وبينكما نسب والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله....."[1]

ومن خلال هذا القول فالجاحظ يرى أن صناعة الكلام يجب أن تكون طبعا وموهبة في الأديب وهذا ما يتميز به حيث نجده أديبا ذا موهبة فنية قوية تجلت بقدرته الفائقة على التعبير بسهولة وسير فما كان أن يتحرك قلمه للكتابة حتى تنثال عليه الألفاظ انثيالا تتدفق عليه تدفقا فتسمعه يقول: "ومن أعاره الله من معرفته نصيبا وأفرغ عليه من محبته ذنوبا حنت إليه المعاني وسلس له نظام اللفظ وكان قد أغني المستمع من كد التكلف وأراح القارئ الكتابة من علاج التفهم".[2]

2-2-الرغـبة: إلى جانب الموهبة والطبع يجب توفر الدافع والرغبة اللذان يحملان الفنان على الكتابة لذلك لابد أن يتقصى الأوقات التي يكون فيها خالي البال من كل شاغل تام النشاط تدفعه الرغبة إلى نظم الكلام[3]

2-3-لكل مقام مقـال:

حيث يشير الجاحظ في هذا العصر إلى وجوب مراعاة الكاتب لحالة الناس الذين يوجه لهم الكلام فلا بد له أن يخاطب العامة بكلام العامة والخاصة بكلام الخاصة إذ يقول: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

[1] أبو عثمان عمرو الجاحظ, البيان والتبيين, ص87

[2] المصدر السابق ,ص474

[3] المصدر السابق, ص86

فيدعوا بذلك إلى الابتعاد عن اللفظ الغريب ومع ذلك لم ينحدر إلى اللفظ المبتذل أو العامي وهكذا جاءت ألفاظه وسطا بين السوقي والساقط والغريب والوحشي[1].

وعليه فإن الجاحظ استمد منهجه عن بشر بن المعتمر وهو علم من أعلام المعتزلة وأبدى تأثره به من خلال إيراد ما جاءت به صحيفته في أماكن كثيرة من كتبه وهذا ان دل على شيء إنما يدل على أن الجاحظ كان ذا نزعة اعتزالية ميالة للعقل تجلب مظاهرها من خلال كتاباته التي اتسمتبالتحليل المنطقي وعمق الأفكار.

[4]علي بو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ, ص476

المبحث الثانـــي: تجليات الاعتزال في موضوعات البيان والتبيين

إن كتاب البيان والتبيين يدور حول ثلاث محاور أساسية بنى عليها الجاحظ هذا الكتاب تمثلت في: البلاغة, البيان, و الخطابة. وسنحاول دراسة هذه الموضوعات مبرزين من خلالها أثر الاعتزال

1-البـــلاغـــــة:

البلاغة هي أساس الإقناع بواسطة المنطق لنجد مفهوم البلاغة في "البيان والتبيين" كثيرا ما يكون مرفقا بعبارة العقل أو المنطق الذي يعطيه صدفة الصواب وشدة الذكاء والدقة فتصبح بذلك البلاغة ذات طاقة عقلية ومنطقية في تأسيس اقناعها للغير فقوله: "وذكر الله حال قريش في بلاغة المنطق .....وصحة العقول وذكر العرب وما فيها من الدهاء والمكر ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة.[1]

أن ما ساقه ليميز به حال العرب قبل نزول القرآن وبعده أي عندما كانوا يرجعون إلى بلاغة المنطق وحدها عندما أصبحوا يعولون على البيان بيان القرآن وحال العرب هو حال الشعوب في عصر الجاحظ فهم لا يرجعون إلى البيان المنزل ولا يعرفون من البلاغة إلا بلاغة المنطق [2]

وهذا يؤكد للجاحظ وجهة نظره الرامية إلى الجمع بين العقل والقلب في تحقيق الاقناع وتأكيد البيان من التبيين ومن الاقناع الجليل هنا .تنتقل البلاغة إلى معنى الاستمالة بالوسائل الجمالية اللغوية وربطها بالمسائل التقنية لتطور العلوم الطبيعية والتكنولوجية.

فالشعوبية هنا أيضا تدعي أن بلاغتها هي البلاغة الصحيحة لأنها تعتمد على المنطق في حين العرب لم يعرفوا منطقا كهذا. هذه الادعاءات والأقوال لليونان والتي أعلت من شأن البلاغة حتى جعلتها تفكيرا عقليا ومنطقيا ,دفعت الجاحظ ومن حذا حذوه إلى الدفاع وتبيان حقيقتها بالتحفيف

[1] محمد الصغير بناني ,النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين, ديوان المطبوعات الجامعية , الجزائر, دط, ص236

[2] المرجع نفسه,ص237

من حدة ترجيح العقل فيها وبإرجاعها إلى منزلة وسطية تجمع فيها إستراتيجية اقناعها بين العقل والعاطفة أو الجوارح[1] فتصبح بذلك طريقا وأسلوبا في التخاطب والتواصل وكذلك في التفكير الذي شكل تركيب اللغة وهي قول وصل والبيان قول فصل ولا يكون للبلاغة ذلك إلا بالإقناع بواسطة البرهان والدليل القطعي فإدراك الدليل الواضح وتقريره في عقول الناس هو البلاغة ويتم هذا بواسطة العقل والقلب معا لا العقل وحده.

بالإضافة إلى المحاولات السابقة لتعريف البلاغة اهتدى الجاحظ إلى قضية هامة لها الأثر الأكبر في البلاغة تمثلت في الفصاحة فلكي يكون الكلام بليغا لابد أن يكون فصيحا واللفظ الفصيح هو الذي يقع وسطا بين السوقي والغريب فالقصد من ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك في تذهيب الألفاظ.[2]

وعليه فإن مذهب الجاحظ المؤسس لعلم البلاغة هو مذهب تعليمي يسعى إلى نشر هذه البلاغة لدعا العامة والخاصة من الناس والأخص بذلك المسلمين الذين يحثهم على تعلمها وتلقيها عكس الشعوبية التي سعى إلى تخويفهم منها وتدفعهم إلى تركها وهذا الانتشار الواسع للبلاغة مرده الدفاع عن كتاب الله ورسوله والارتقاء بالتشييد والبناء في الأمة الإسلامية عن طريق العلم والكتابة.ومن شروط البلاغة عند الجاحظ مطابقة الكلام لمقتضى الحال ويتضح ذلك من قوله "سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني....."فالتوسط بين المعني ولفظه ضروري عند الجاحظ للوصول إلى الأسلوب المناسب [3]

[1] الجاحظ, البيان والتبيين, ص10

[2] المصدر نفسه, ص88

[3] المصدر نفسه, ص90

واللفظ الواضح ما هو في نظر الجاحظ "ما لم يكن متوغرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا.....

فالألفاظ والمعاني تتباين تبعا لأساليب الكلام نفسه وهو ما أدركه الجاحظ فلا يحكم بالقبح أو الحلاوة مطلقا ما لم يعرف سبب القول وغايته ولعل تعريف البلاغة في كتاب "البيان والتبيين" لم يخرج عما قاله الجاحظ عن البيان في علم الكلام فلم يقصد الجاحظ في تعريف البلاغة إلا وصول المعنى وبلوغه قلب السامع مع تفهم لهذا المعني وقبوله له.[1]

ومن أهم القضايا البلاغية التي تناولها الجاحظ نذكر:

1-1-الإيـــجاز: الإيجاز من القضايا البلاغية التي عرض إليها الجاحظ ونراه يستحسن الكلام القليل من حيث القليل حيث يرى أن: "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه....."

ولكن الجاحظ لم يقصد قلة عدد الحروف والألفاظ في حد ذاتها فقد يكون الكتاب موجزا في كتاباته وهو قد سطر ما يملأ صفحة بالكلام الذي يعبر عن معنى معين وإنما يقاس الإيجاز عنده بالإفهام وعدم الإغلاق فالكلام الذي يفهمني مراد صاحبه هو الإيجاز والذي يزيد عن ذلك ويفضل هو الفساد بعينه.[2]

فالإيجاز حسب الجاحظ "ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار. فقد أوجز وكذلك الإطالة وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطل"

الجاحظ ربط الإيجاز بالإفهام فمتى فهم قصد المتكلم تحقق الإيجاز.

حيث قسم علماء البلاغة الإيجاز إلى قسمين أساسين هما: القسم الأول وهو الإيجاز بالحذف والقسم الثاني وهو الإيجاز بدون حذف.

---

[1] مريم محمد المجمعي, نظرية الشعر عند الجاحظ, دار مجدلاوي, ط1, عمان, 2009 ص82,

[2] محمود شاكر القطاي, الايجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية, جامعة الملك عبد العزيز, المدينة المنورة, 1989,ص11

ويعتبر الجاحظ من أوائل الكتاب الذين تكلموا عن الإيجاز بدون حذف حيث قال في وصف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف" [1]

فالجاحظ في هذا الموضوع لم يذكر اسم هذا اللون من الإيجاز وإن كان قد عرفه وبين معانيه إلا أنه فعل ذلك حين قال أيضا في وصف كلام الرسول الكريم: "والذي يدلك على أن الله عز وجل قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم" فكلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يتميز بالإيجاز هو سبب تفطن الجاحظ لهذا اللون من الإيجاز.[2]

1-2-المجـــــاز:

أطلق الجاحظ كلمة المجاز على كل الصور البيانية عندما تناول كثيرا من آيات القرآن الكريم للبحث عما فيها من صور المجاز يتضح ذلك من خلال الباب الذي كتبه تحت عنوان "باب آخر في المجاز والتشبيه.ومن أوائل الإشارات البيانية عنده قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما)[3] وقوله (أكالون للسحت)[4]

معلقا على الآيتين الكريمتين بقوله: ويقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل

وقد قال عز وجل (وإنما يأكلون وفي بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)[5] وهذا مجاز آخر فلفظة الأكل وحدها وجدها الجاحظ تستعمل حقيقة ومجازا. تستعمل حقيقة في معناها المعروف عند الناس وتستعمل مجازا حين لم يرد الأكل الحقيقي وإنما يراد بها ما يلابس الأكل من الإنفاقوالإخفاء وإضاعة المال وذهابه كما يذهب الطعام في الجوف فلا يبقمنه بقية.

---

[1] الجاحظ, البيان والتبيين,ج2, ص16

[2] أحمد عبد السيد الصاوي, مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد البلاغيين, منشأة المعارف, مصر,1988,ص36

[3] سورة النساء الآية 10

[4] سورة المائدة الآية45

[5] المرجع السابق ص 37

إذن فالمجاز عند الجاحظ هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له على سبيل التوسع من أهل اللغة ثقة من القائل بفهم السامع وبهذا فهو أول مصنف عربي أشار إلى المجاز والاستعارة في كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" تعد أول ما سجل منها بالمعنى البياني في المؤلفات العربية حتى يعد بذلك أول رائد للبلاغة العربية بمعناها الاصطلاحي الذي أخذ يتطور على مر الزمن حتى بلغ قمته على يد السكاكي والقزويني وغيرهما من أعلام البلاغة. [1]

1-3-الاستـــعارة: كثير ما استعمل الجاحظ لفظة التشبيه للدلالة عن معنى الاستعارة لذا كان البدل عنده مطلقا على التشبيه أيضا لأنه لون منه كما هو الحال في الاستعارة وهذا في الحقيقة ليس غريبا من الجاحظ فالاستعارة مجاز علاقته المشابهة في قول المتأخرين وبعضهم يجعل التشبيه استعارة ترد عندهم في أجزاء الاستعارة كما يتصل التشبيه بالتمثيل [2]

ونجده يعلق على قول الشاعر :

وطفقت سحابة تغشاها تبكي على عراصها عيناها

وطفقت يعني ظلت, تبكي على عراصها عيناها ها هنا للسحاب وجعل المطر بكاء من السحاب على طريقة الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه [3]

1-4-التـــشبيـــــه:

من بين التشبيهات التي أوردها الجاحظ في كتابه البيان قول الشاعر:

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقني وكل حجاز له البرق شائق

سري مثل نبض العرق والليل دونه وأعلام أبلى كلها و الاسالق

كما في تفسيره لقوله تعالى: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)

وجاء في هذه الآية الكريمة تشبيه شجرة الزقوم برؤوس الشياطين فقد أفهم أن المشبه به قد يكون وهميا لا يدرك بالحواس الظاهرة فلا أحد من الانس رأى رؤوس الشياطين..[4]

---

[1] أحمد عبد السيد الصاوي, مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد البلاغيين, ص37

[2] المرجع نفسه, ص 38

[3] الجاحظ, البيان والتبيين, ج1, ص152

[4] ينظر المصدر نفسه, ج2,ص328

1-5- الكـــــنايـــة:

وردت الكناية عند الجاحظ بمعناها العام وهو التعبير عن المعني تلميحا لا تصريحا و إفصاحا كلما اقتضى الحال ذلك ويفهم ذلك من قوله: :رب الكناية تربي على إفصاح"

فهذا يدل على أن الكناية عنده هي التعبير عن المعاني بألفاظ وإن كانت ظاهرة مقطعة الحروف كألفاظ المجوسي إلا أنها لم تجعل لتدل على معانيها أو هي لا تدل عليها مباشرة.[1]

2-البـــــيان:

اتخذ الجاحظ لفظة البيان عنوانا لكتابه والحقيقة أنه في تفسير لمعنى البيان لم يثبت على تفسير واحد ولعل أوضح تعريف للبيان أنه هذا الكتاب لا يستطيع أن ينكر الدور الذي قام به الجاحظ في تأسيس البيان العربي فهو أول من فتق أبواب البيان وأبان عن مكامن اللغة العربية الجمالية وأخذ في ذلك جميع الصور اللفظية والغير اللفظية التي تحتضن الفكر وتعبر عن الدلالات والمعاني المختلفة.[2] حيث أن مصطلح البيان من أقدم المصطلحات البلاغية وأهمها كان له نصيب في القرآن الكريم ففيه نجد اشارات كثيرة للبيان منها قوله تعالى: (هذا بيان للناس وهدى وموعضة للمتقين)[3] وقوله تعالى أيضا (الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان)[4] كل ذلك اشارات إلى أهمية البيان

وقد حدد الجاحظ في هذا المجال مفهوما للبيان بقوله: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف ذلك قناع المعني وهتك الحجة دون الضمير حتى يغضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله.[5]

---

[1] الجاحظ, البيان والتبيين,ج2,ص300

[2] منقور عبد الجليل, علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي, منشورات اتحاد الكتاب العربي, دط,سوريا,2001,ص120

[3] سورة آل عمران138

[4] سورة الرحمان1_4

[5] الجاحظ, البيان والتبيين,ص54

حيث أن الجاحظ بذل جهدا كبيرا في تسجيل ملاحظاته على البيان العربي ومن ذلك قام بجمع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى النصبة ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صحتها وحيلة مخالفة لحلبة أختها وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن دقائقها في التفسير[1].

في ضوء هذا الفهم يتوضح أن البيان لا يكون هو نفسه في موضع آخر أي أن للبيان مستويات عديدة وفقا لمواضيعه وسياقاته المختلفة

هذه لفتة هامة إلى مفهوم البيان ومداره بالأسلوب والسياق حيث أن الجاحظ يعد المؤسس الأول للبيان العربي فقد ملاحظاته وآرائه عن هذا البيان ودون كذلك ملاحظات معاصريه أو خاصة المعتزلة في صفات الألفاظ والمعنى والكلام إجمالا [2].

ومرة أخرى يعرف الجاحظ البيان بقوله: "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعوا إليه ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم.[3]

ويتضح من خلال هذا التحديد وجود عنصرين أساسين هما المعنى والدلالة

2-1-المـــعنى :

لا يقتصر على الأفكار التي تخطر في الذهن وإنما ينطوي أيضا على الصور التي تتولد في المخيلة. والمشاعر التي تختلج في الصدر والحاجات والميول التي تجيش في النفوس. وعبر الجاحظ عن هذا المحتوي عن هذا المعنى قائلا: " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة على فكرهم مستورة خفية ....."[4]

---

[1] الجاحظ, البيان والتبيين, ص55

[2] ميشال عاصي, المفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ,مؤسسة نوفل ,بيروت, ط2, 1981, ص11

[3] محمد القاسم, علوم البلاغة, دار النشر,لبنان,ط1,2003,ص104

[4] المرجع نفسه, ص105

2-2-الدلالــة:

الدلالة هي الأداة التي يستعملها المرء للتعبير عن معانيه مهما كان جنسها ونوعها وقد جعلها الجاحظ خمسة أصناف وهي: اللفظ، الاشارة، العقد، الخط، الحال كما ذكرناهم سابقا.

إذن فالبيان عند الجاحظ يكمن في الفصاحة والوضوح وحسن الدلالة وبسط المعاني وتغيرها بتغير الدلالة.[1]

3-الخطــابة:

حاول الجاحظ دراسة أصول الخطابة وتقريرها في كتاب البيان والتبيين لسببين هما:

الأول: وهو الدفاع عن العرب ضد الشعوبية وأن يكون للكتاب نماذج يمكن أن يحتذوها ليبلغوا من البيان العربي المكانة الموجودة لهم ولهذا فالجاحظ يعرض لنا الكثير من النماذج من خطب المشهورين العرب مثل زياد بن أبية والحجاج بن يوسف ويعرض معها عادات العرب في الخطابة من عمدهم إلى الإشارة باليد والإمساك بالعصا وما إلى ذلك.....[2]

وتعد الخطابة أو الخطبة الأصل المرجعي للخطاب الذي نظر إليه في الوعي البياني والبلاغي على أنه هو الآخر مشروط بالإقناع والتأثير أو الجاري مجرى التأثير والإقناع أفضل الخطاب هنا هو الكلام الجاري مجرى الحكم الحاكم بين الخصوم.

وقد أشار الجاحظ عرضا إلى وجود هذا النوع من التعليم فذلك الأسلوب من أساليب التربية العقلية واعداد الناشئة للحياة التي يبدوا أن الخطابة كانت عنصرا ظاهرا فيها.

فالخطابة في عصر الجاحظ أصبحت تنافس الشعر بل وتتفوق عليه في كثير من الأحيان وقد أورد الجاحظ مقولة أبي عمرو بن العلاء التي تبين انحدار مكانة الشاعر عما كانت عليه في الجاهلية ومبررات تفوق الخطيب وبين بلاغة الخطيب وبلاغة الشعر وأيهما أفضل وكل ذلك وان دل فإنما يدل على شدة الاهتمام بالخطابة في عصر الجاحظ وكيف كان كتابة ترجمان لذلك الاهتمام.

---

[1] الجاحظ, البيان والتبيين,ج1, ص255

[2] محمد زغلول سلام, تاريخ النقد الأدبي إلى الرابع هجري, دار المعارف,ج1,مصر,ص427

فقد أشار في مقدمة الكلام إلى رجل يسمى ابراهيم بن جبلة بن مخزمة السكوني الخطيب كان يعلم الفتيان الخطابة وحيث أصبحت الخطابة صناعة يصطنع لها المعلمون كان لزاما النظر في أصولها وقواعدها.

حيث كانت المعتزلة أكثر الناس عناية بالاستنباط أصولها وقواعدها لم يعني أحد بها كما عني بها بشر بن المعتمر "المعتزلي" الذي أورد له الجاحظ في كتابه البيان والتبيين التي حددت قوانينا هامة في الخطابة والتي شرحها وحللها وأضاف إلى ذلك ما يجب على الخطيب تجنبه من عيوب النطق كالصفير الذي يخرج من الثنايا المتروعة وكذلك اللثغة واللكنة والعي.....الخ[1]

وبالإضافة إلى ذلك كان الجاحظ يؤثر قلة الإشارات والحركات عند الإلقاء فحكي عن أبي شمر أنه كان اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه حتى كان كلامه انما يخرج من صدع صخرة وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته .[2]

وبهذا فإن الجاحظ قد استوفى قواعد الخطابة وأصولها مقررا بأن سلامة النطق متممة لألة الخطيب. فبعض الخطباء يأتي بحركات تسيء إليه وإشارات تذهب من هيبته وبعضهم يكلف الجمود ويصطنع التماسك فيبدوا كالحجر الصلب يخرج منه الكلام ولا تختلج خالجة فيه وكلامهما معيبا [3]

حيث كان للمعتزلة فضل كبير وقوة بلاغتهم في مجال الخطابة إذ يقول "أن كبار المتكلمين رؤساء النضارين وعلى رأسهم المعتزلة كانوا وفق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا الألفاظ لتلك المعاني وهم استقروا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع.[4]

---

[1] الجاحظ, البيان والتبيين,ص22

[2] المصدر نفسه, ص63

[3] محمد زغلول سلام, تاريخ النقد الأدبي إلى القرن الرابع هجري, ص293

[4] الجاحظ, البيان والتبيين,ص88

حيث كان سبب اهتمام الجاحظ بالخطابة هو حاجة المجادل للحجج العقلية والمعتزلة بدورهم ركزوا على العقل فهذه الحجج تحتاج إلى صياغة خالية من العيوب اللفظية والكلامية أي صياغة سليمة. فالجاحظ يرى أن الحجج العقلية في مضمون الفكرة والصياغة السليمة هي الشكل التي تخرج به الفكرة إلى الواقع فلا تستوي بذلك المضمون إلا سلامة شكله.[1]

[1] محمدزغلولسلام, تاريخالنقدالأدبيإلىالقرنالرابعهجري, ص294

خاتمة

خاتــمة:

يمكن استخلاص ما سبق ذكره وإجمال القول في نقاط فقد قادنا هذا البحث للوصول إلى عدة نتائج أهمها:

1. العصر العباسي هو عصر الازدهار الفكري والثقافي إذ كان له الأثر الفعال والبالغ في تكون ثقافة الجاحظ العلمية.
2. الجاحظ يعتبر مدرسة أدبية قائمة بحد ذاتها وأنه يمثل خير تمثيل الاتجاه الاعتزالي فمميزات رجال الاعتزال مجتمعة بشكل نموذجي في آثاره من استفاضة وعمق في الوصف واطناب وتطويل في الشرح والتفصيل ونزعة أدبية وفنية في الحديث عن الموضوعات العلمية والفلسفية البحتة وميل إلى التحكم والسخرية والنقد في التعامل مع الخصوم والمذاهب والمعتقدات التي لا تنسجم مع المنطق العقلي للمعتزلة.
3. كتاب البيان والتبيين آخر ما ألف الجاحظ إذ يحمل بين طياته الأشياء الكثيرة من نوادر وخطب وأحكام وأمثال وشعر.....
4. المعتزلة أول مدرسة عقلانية إسلامية ما لبثت أن لعبت دورا خطيرا في الحياة الفكرية والعقائدية في المجتمع الإسلامي .
5. المعتزلة أول من سبغ الثقافة الإسلامية بسبغة عقلية وطبعوها بطابع منطقي وحرصوا على تطويرها وإغنائها، وهذا ما نلمسه جليا في مناظراتهم لغيرهم من أهل الثقافات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية ومستعينين في ذلك بالمنهج الجدلي الفكري الذي حددوا طرقه المثلى من خلال اطلاعهم على ما زجرت به تلك الثقافات من علوم وفلسفات وهنا يظهر مدى تأثر المعتزلة بالحضارات الأخرى فكانوا بذلك السباقين لنقل تراث تلك الثقافات إلى الحضارات العربية دون غيرهم من المذاهب الأخرى.
6. ومن خلال البيان والتبيين أبرز الجاحظ أحسن نموذج تركته النزعة الاعتزالية والذي يمثل حوصلة لأفكار المعتزلة وأرائهم في الأدب العربي.

7. جمع الجاحظ خصائص ومميزات رجال الاعتزال من عمق التفكير وفصاحة اللسان وقوة البلاغة وحجة الاقناع وها ما يتضح جليا من خلال رده على الشعوبية وحججها.

وفي الأخير تأمل أن نكون قد وفقنا إلى حد ما في بحثنا المتواضع هذا الذي أردنا من خلاله أن نوضح ونثبت قدرة الجاحظ العلمية التي تميز بها وكذلك تبيان مذهبه الاعتزالي وكيف جسده في كتابه الأخير "البيان والتبيين "

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريـــم

1. ابراهيم أنيس, دلالة , مكتبة الأنجلو مصرية, د ط, مصر,1997
2. أبو الحسن الأشعري, مقالات الاسلاميين, تح محي الدين عبد الحميد, دار الحداثة, ط2, القاهرة,1996
3. أبو حسن الخياط, الانتصار, دط, القاهرة مصر, 1344هـ
4. أحمد أبو زيد, المنحى الاعتزالي في البيان واعجاز القرآن , مكتبة المعارف للنشر والتوزيع, ط1, الرباط 1986
5. أحمد عبد السيد الصاوي, مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد البلاغيين, منشأة المعارف, مصر,1988
6. أحمد محمود صبحي, دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين, مؤسسة الثقافة الجماعية, ط1, 2014
7. اسماعيل عز الدين, المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, دط, القاهرة, مصر
8. الجاحظ, البيان والتبيين, تح عبد السلام محمد هارون,ج1,ج2 مكتبة الخانجي ,ط7, القاهرة1998
9. الجاحظ, الحيوان,ج1 دار الكتب العلمية,ط1, بيروت,1996
10. جميل جبر, الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد, دار الصادر, د ط ,بيروت_ لبنان
11. زهري جار الله, المعتزلة, المكتبة الأزهرية للتراث ,د ط, القاهرة, 2002
12. شارل بيلا, الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء, تر ابراهيم الكيلاني, ديوان المطبوعات الجامعية, ط1, الجزائر,1985
13. طه الحاجري, الجاحظ حياته وآثاره', دار المعارف,ط2,مصر 1969
14. عبد الحكيم بلبع, أدب المعتزلة, دار النهضة للطباعة, دط. مصر,1979

15. عبد اللطيف بن رياض, منهج المعتزلة في توحيد الأسماء والصفات, مذكرة ماجيستر. الجامعة الاسلامية, غزة, 2011

16. عبد المجيد جوري, مكانة العقل في فلسفة الجاحظ, مذكرة ماجيستر, جامعة الجزائر, 2004\2003

17. عبد المنعم خفاجي, أبو عثمان الجاحظ, دار الكتاب اللبناني, دط, بيروت لبنان

18. علي الشابي, أبو لبابة حسن, المعتزلة بين الفكر والعمل, دط, أكتوبر,1979

19. علي بو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ, دار ومكتبة الهلال, ط1, بيروت, 1972

20. علي بو ملحم, المناحي الفلسفية عند الجاحظ, دار وكتبة الهلال ,

21. فالح الربيعي, تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم, الدار الثقافية للنشر, ط1, مصر, 2001

22. فتحي أحمد عامر, فكرة التنظيم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم, منشأة المعارف, دط, مصر,1991

23. مجد الدين بن يعقوب فيروز أبادي, قاموس المحيط,ج4, دار الكتاب العربي ,دط

24. محمد القاسم, علوم البلاغة, دار النشر,ط1, لبنان,2003

25. محمد صغير بناني, النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين, ديوان المطبوعات الجامعية ,د ط, الجزائر

26. محمد عبد الغني الشيخ, النثر الفني في العصر العباسي الأول, ديوان المطبوعات ,د ط, الجزائر, 1983

27. محمود شاكر القطاي, الإيجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية, جامعة الملك عبد العزيز, المدينة المنورة,1989

28. مريم محمد المجمعي, نظرية الشعر عند الجاحظ, دار مجدلاوي, ط1, عمان,2009

29. منقور عبد الجليل, علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي, منشورات اتحاد الكتاب العربي, دط, سوريا, 2001

30. منير سلطان, إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة, منشأة المعارف,ط3, 1986

31. ميشال عاصي, المفاهيم الجمالية والنقدية في أدب الجاحظ, مؤسسة نوفل , بيروت,ط2. 1981

فهرس المحتويات

فهـــــــرس المحتويـــــــات

العنـــــــاويـــن	الصفحـة
بسملة *شكر وعرفان* *إهداء*	
مقدمة	أ-د
مدخل	6
الفصل الأول: المعتزلة– الأفكار والتطور	
المبحث الأول: ماهية المعتزلة ونشأتها	15
ماهية الاعتزال:	15
العوامل التي مهدت لظهور المعتزلة:	16
نـشـأة المـعـتزلـــة:	19
المبحث الثاني: مبادئ المعتزلة والأسس الفكرية للاعتزال	22
مبادئ الاعتزال:	22
الأسس الفكرية للاعتزال :	24
المبحث الثالث:مسألة النظم عند المعتزلة وتطور الاعتزال في ظل المؤثرات الأجنبية.	28
مسألة النظم عند المعتزلة.	28
تطور الاعتزال في ظل المؤثرات الأجنبية.	30
الفصل الثاني: الاعتزالية في أدب الجاحظ من خلال البيان والتبيين	
المبحث الأول : أثر الاعتزال في تأليف البيان والتبيين.	34
التعريف بالكتاب ومحتواه:	34
سبب تأليف الكتاب:	35
منهجية الكـــتاب وأسلوبه:	36
المـنهج التعبـيري:	40

المبحث الثانـــي: تجليات الاعتزال في موضوعات البيان والتبيين	43
البـــلاغـــــة:	43
البيـان	48
الخطـــابة:	50
خاتـــمة:	هـ - و
قائمة المصادر والمراجع	56
فهرس المحتويات	60